فصل

في تركة السلطان ووصف أخلاقه رحمه الله

ذكر القاضي ابن شداد أنه لما مات لم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصرية، ودينار واحدًا ذهبا صورياً، ولم يخلف ملكا لا دارا ولاعقارا، ولا بستانا ولا مزرعة يعني في البلد، ولا مسقفا ولا ظاهرا مستغلا من أنواع الاملاك.

وقا ل العمادفي كتاب الفتح: خلف السلطان رحمه الله سبعة عشر ولدا ذكرا، وابنة صغيرة، وأبقى له مآثر أثيره، ومحاسن كثيرة، ولم يخلف في خزانته سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهما، فإنه كان باخراج مايدخل من الأموال في المكرمات والغرامات مغرما،وكان يجود بالمال قبل الحصول، ويقطعه عن خزانته بالحوالات عن الوصول، وإذا عرف بوصول حمل وقع عليه بأضعافه، وخص الآحاد من ذوي الغنا في الجهاد بآلافه، ولاجبه أحدا بالرد إذا سأله، بل تلطف له كأنه استمهله، فإنه يقول ما عندنا شيء الساعة ومفهومه أنه يعطى، وإن كان يبطى ، وأنه يصيبه بالنوال ولا يخطى، وكان مشغوفا في سبيل الله بالانفاق موقوفا عزمه في الأعداء بإدناء الآجال ، وفي الأولياء بإجراء الأرزاق، وماعقر في سبيل الله فرس أوجرح إلا وعوض مالكه مثله، وزاده من فضله فضله، وحسب ماوهبه من الخيل العراب والأكاديش الجياد للحاضرين معه في صف الجهاد، مدة ثلاث سنين وشهر مذ نزل الفرنج على عكا في رجب سنة خمس وثمانين إلى يوم انفصالهم بالسلم في شعبان سنة ثمان وثمانين، فكان تقديره إثني عشر ألف رأس من حصان وحجرة واكديش ، وذلك غير ما أطلقه من المال في اثمان الخيل المصابة في القتال، ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أوموعود به، وصاحبه ملازم في طلبه، وماحضر اللقاء إلا استعار فرسا فركبه، وهجر جياده، فاذا نزل جاء

صاحبه واستعاده، فكلهم يركب خيله، ويطلب خيره، وهو يستعيرجوادا، ويستعر في الجهاد اجتهاداً.

قال في البرق: وحضرت بعده عند بعض الملوك وقد قيدت إليه عراب، فقيل له: كان السلطان يضيع هذه،وماعنده لهاحساب، ونسبوا جوده بها إلى السرف وعدوّه من معاييه، وأعرضوا عن ذكر مفاخره ومناقبه، وبمثل ذلك استتبت له الفتوح وخلصت له طاعة كتائبه.

قال في الفتح: وكان لايلبس إلا مايحل لبسه، وتطيب به نفسه، كالكتان والقطن والصوف، وكسوته يخرجها في اسداء المعروف ، وكانت محاضره مصونة من الخطر وخلواته مقدّسة بالطهر، ومجالسه منزهة عن الهزء والهزل، ومحافله حافلة آهلة بأهل الفضل ، وماسمعت له قط كلمةتسقط، ولا لفظة فظة تسخط، ويغلظ على الكافرين الفاجرين، ويلين للمؤمنين المتقين ويؤثر سماع الأحاديث بالأسانيد، ويكلم العلماء عنده في العلم الشرعي المفيد، وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء ومشاركة القضاة في القضاء أعلم منهم بالأحكام الشرعية والأسباب المرضية والأدلة المرعية، وكان من جالسه لايعلم أنه مجالس السلطان بل يعتقد أنه مجالس أخ من الأخوان، وكان حليماً مقيلاً للعثرات، متجاوزا عن الهفوات، تقيا نقيا، وفيا صفيا، يغضي ولا يغضب، ويبشر ولا يتقطب، ماردّ سائلاً ولا صدّ نائلا، ولا أخجل قائلاً، ولا خيب آملاً .

قال: ومن جملة مناقبه أنه تأخر عنه في بعض سفراته الأمير أيوب بن كنان، فلما وصل سأله عن سبب تخلفه، فذكر دينا فأحضر غرماءه، وتقبل بالدين ، وكان اثني عشر ألف دينار مصرية وكسرا.

قال: ولما كنا بالقدس في سنة ثمان وثمانين كتب إليه سيف الدولة بن منقذ نائبه بمصر، أن واحدا ضمن معاملة بمبلغ فاستنض منها الفي

دينار، وتسحب، وربما وصل إلى الباب، فتحيل وتمحل وكذب، فجاء من أخبر السلطان أن الرجل بالباب،فقال: قل له: إن ابن منقذ يطلبك فاجهد أن لا تقع في عينه، فعجبنا من حلمه وكرمه بعد أن قلنا قدم الرجل إلى حينه بقدمه.

قال: ومما أذكره له في أول سفرتي معه إلى مصر سنة اثنتين وسبعين، أنه حوسب صاحب ديوانه عما تولاه في زمانه ، فكانت سياقة الحساب عليه سبعين ألف دينار باقية عليه، فماطلبها ولا ذكرها ، وأراه أنه ماعرفها، على أن صاحب الديوان مأأنكرها، وكان يرضى من الأعمال بما تحمل صفوا عفوا، وتحصل حلوا ، وكله يخرج في الجود والجهاد، ثم لم يرض له بالعطلة، فولاه ديوان جيشه.

قال: ولما كنا بظاهر حران عم بصدقاته الفقراء والمساكين، وكتب إلى نوّابه في الولايات بإخراج الصدقات وقال لي: اكتب إلى الصفي بن القابض بدمشق أن يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية، فقلت :إنما الذهب الذي عنده مصري، فقال :فيتصدق بخمسة آلاف دينار مصرية ، واشفق من صرف المصري بالصوري فيكون حراما، ويرتكب في كسب الأجر آثاما، فسمح ومنح، وتاجر الله وربح،ولما عزم على الرحيل من حران أفاض بها الفضل وبث الاحسان، وقال لي يوم الرحيل: انظر كم بقي بالباب من الوافدين أبناء السبيل وهذه ثلاثمائة دينار أقسمها عليهم بالقلم على أقدارهم، وكانوا عدة يسيرة لم تبلغ عشرة، فعينت لكل اسم قسما فبلغ أربعمائة دينار، فأعلمته وقلت أنقص من كل اسم ربعا، فقال اجر ما جرى القلم به.

قال: وكان رحمه الله إذا أطلق لعاف عارفة، وقلت له: هذه ماتكفيه ردّها مضاعفة.

قال: وكان يغضب للكبائر، ولا يغضي عن الصغائر، ويرشد إلى الهدى، ويهدي إلى الرشاد، ويسدد الأمر، ويأمر بالسداد، فكل مماليكه وخواصه بل أمراؤه وأجناده أعف من الزهاد والعباد.

قال: ورأى لي يوماً دواة محلاة بالفضة،فأنكرها، فقلت له: إن الشيخ أبا محمد والد أبي المعالي قد ذكر وجها في جوازها، ثم لم أكتب بها عنده بعدها.

وكان محافظا على الصلوات الخمس في أوائل أوقاتها، مواظبا على أداء مفروضاتها ومسنوناتها، فما رأيته صلى إلا في جماعة ، ولم يؤخر له صلاة من ساعة إلى ساعة، وكان له امام راتب ملازم مواظب، فان غاب يوما صلى به من حضره من أهل العلم، إذاعرفه متقيا متجنبا للاثم، وكان يأخذ بالشرع ويعطي به، ولم يكن إلى المنجم مصغيا، ولم يزل لقوله ملغيا،ولا يتعيف ولا يتطير، ولا يتعين ولا يتحير، بل إذا عزم توكل على الله، فلا يفضل يوما على يوم، ولازمانا على زمان إلا بتفضيل الشرع، ومازال ناصراً للتوحيد، وقامعا جميع اهل البدع بالتبديد، شافعي المذهب أصولا وفروعا، معتقلا له معقولا ومسموعا، يدني أهل التنزيه، ويقصي أهل التشبيه، ويديم استفادة فقه الفقيه،واستزادة نباهة النبيه، ووجاهة الوجيه، فالعالمون في عدله،والعاملون في فضله والبلاد في أمنه، والعباد في منه.

فصل

قال القاضي ابن شداد: كان مولد السلطان رحمه الله في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة بقلعة تكريت، وكان والده أيوب بن شادي واليا بها، وكان كريما، أريحيا حليما، حسن الأخلاق مولده بدوين، ثم اتفق له الانتقال من تكريت إلى الموصل، وانتقل ولده المذكور معه، وأقام بها إلى أن ترعرع، وكان والده محترما مقدّما، هو وأخوه أسد الدين شيركوه عند أتابك زنكي، واتفق لوالده الانتقال إلى الشام واعطي بعلبك وأقام بها مدّة ومعه ولده المذكور، فأقام في خدمة والده يتربى تحت حجره، ويرتضع ثدي محاسن أخلاقه حتى بدت منه أمارات السعادة، ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة، وقدّمه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله، وعوّل عليه، ونظر إليه وقربه وخصصه، ولم يزل كلما تقدم قدما يبد منه أسباب تقتضي تقديمه إلى ماهو أعلى منه، حتى اتفق لعمه أسد الدين شيركوه الحركة إلى مصر، والنهوض إليها وقد مضى ذلك.

ثم قال:

ذكر ماشاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية

مماورد في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:«بني الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله الا الله، وإقام الصلاة،وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج إلى بيت الله الحرام» فكان رحمه الله حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى، قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء، ويتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولا

حسنا، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه والتعطيل، جاريةعلى نمط الاستقامة، وكان قد جمع له الشيخ الامام قطب الدين النيسابوري رحمه الله عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب، وكان من شدّة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده، حتى ترسخ في أذهانهم من الصغر، ورأيته وهو يأخذها عليهم، وهم يقرؤونها من حفظهم عليه.

وأما الصلاة فإنه كان شديد المواظبة عليها بالجماعة، وكان يواظب على السنن والرواتب، ولقد رأيته يصليها إن استيقظ بوقت الليل وإلا اتى بها قبل صلاة الصبح، وما كان يترك الصلاة مادام عقله عليه، ولقد رأيته يصلي في مرضه الذي مات فيه قائما، وماترك الصلاة إلا في الايام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه، وكان إذا أدركته الصلاة وهوسائر نزل وصلى.

وأما الزكاة فانه مات رضي الله عنه ولم يحفظ ماوجبت عليه به الزكاة، وأما صدقة النفل فانها استنفدت جميع ما ملكه من الأموال.

وأما صوم رمضان فإنه كان عليه فيه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعددة،وكان القاضي الفاضل قدتولى ثبت تلك الأيام، وشرع رحمه الله في قضاء فوائت ذلك في القدس الشريف في السنة التي توفي فيها، وواظب على الصوم مقدارا زائدا على شهر فإنه كان عليه فوائت رمضانين، شغلته الأمراض وملازمة الجهاد عن قضائها، وكان الصوم لايوافق مزاجه فألهمه الله الصوم لقضاء الفوائت، فكان يصوم وأنا أثبت الأيام التي يصومها ، فان القاضي كان غائبا، والطبيب يلومه وهو لايسمع ويقول: ماأعلم مايكون ، فكأنه كان ملهما براءة ذمته، ولم يزل حتى قضى ما عليه رحمه الله.

وأما الحج فإنه لم يـزل عازما عليه وناويا لـه لاسيما في العام الذي توفي فيه، فـإنه صممـم العزم عليه وأمـر بالتأهـب، وعملت الـزوادة ولم يبق إلا المسير، فـاعتاق عـن ذلـك بسبب ضيـق الوقـت ، وفـراغ اليد عما يليـق بأمثاله، فأخره إلى العام المستقبل، فقضى الله ماقضى.

قـال: وهـذا شيء اشترك في العلم بـه الخاص والعـام، وكـان رحمه الله يحب سماع القرآن العظيم حتى أنه كـان يستخير إمامه، ويشترط عليه أن يكون عالما بعلـوم القرآن العظيم متقنا لحفظه، وكـان يستقرىء من يحضره في الليـل، وهو في بـرجـه الحزبين والثلاثـة والأربعـة وهـو يسمع، وكـان يستقرىء في مجلسه العام مـن جرت عادته بذلك الآيـةوالعشرين والزائد على ذلـك، ولقـد اجتـاز على صغير بين يـدي أبيـه وهـو يقـرأ القـرآن، فاستحسن قراءتـه فقرّبه وجعل له حظا من خاص طعـامه، ووقف عليه، وعلى أبيه جزءا من مـزرعة،وكان رحمه الله خاشع القلب رقيـق الدمعة إذا سمع القرآن العزيز يخشع قلبه وتدمـع عينه في معظم أوقاته، وكان شديد الرغبـة في سماع الحديث،ومتـى سمع عـن شيخ ذي روايـة عاليـة وسماع كثير، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمـع عليه، واسمع من يحضره في ذلـك المكان مـن أولاده ومماليكـه والمختصين بـه، وكان يـأمر النـاس بالجلـوس عند سماع الحديـث اجلالًا له، وإن كـان الشيخ ممـن لايطرق أبواب السـلاطين ويتحامـى عن الحضور في مجالسهـم سعى إليـه وسمع عليه، تـردد إلى الحافظ السلفي بالاسكنـدرية وروى عنه أحـاديث كثيرة، وكان يحب أن يقـرأ الحديث بنفسـه، فكان يستحضرني في خلـوته ويحضر شيئامـن كتب الحديـث، ويقرأ هـو فإذا مـر بحديـث فيه عبرة رق قلبـه ودمعت عينـه، وكان كثير التعظيـم لشعائر الديـن قائلا ببعـث الأجسام ونشورها ، ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بـالنار، مصدقا بجميع ماوردت بـه الشرائع منشرحـا بـذلـك صـدره، مبغضـا للفـلاسفـةوالمعطلـة والدهريـة،ومن يعاند الشريعة المطهـرة ، ولقد أمر ولده الظاهـر صاحب حلب بقتل شاب كان نشأ يقال له السهـروردي، قيل عنه أنه كان معانداً

للشرائع مبطلا، وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره، وعرّف السلطان به فأمر بقتله وصلبه أياما فقتله، وكان حسن الظن بالله كثير الاعتماد عليه عظيم الانابة إليه، ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه، فحكى التجاءه إلى الله تعالى عند خوفه من قصد الفرنج بيت المقدس،وامتناع أصحابه من دخوله للحصر، فصلى ودعا فكفي ذلك، وقد تقدّم ذكره.

ثم قال: وكان رحمه الله عادلا رؤوفا رحيما ناصرا للضعيف على القوي، وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير، وعجوز هرمة وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً، على أنه كان في جميع زمانه قابلا لمايعرض عليه من القصص، كاشفا لما ينهى إليه من المظالم، وكان يجمع القصص في كل يوم، ثم يجلس مع الكاتب ساعة في الليل أو في النهار، ويوقع على كل قصة بما يطلق اللهعلى قلبه، وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع ظلامته،وأخذ قصته، وكشف قضيته، ولقد ر أيته وقد استغاث إليه انسان من أهل دمشق، يقال له ابن زهير على تقي الدين ابن أخيه، وأنفذ إليه ليحضره في مجلس الحكم، فما خلصه إلا أن أشهد عليه شاهدين أنه وكل القاضي أمين الدين أبا القاسم قاضي حماه في المخاصمة، فأقاما الشهادة عندي في مجلسه، فأمرت أبا القاسم بمساواة الخصم فساواه،وكان من خواص جلساء السلطان، ثم جرت المحاكمة بينهماواتجهت اليمين على تقي الدين، وكان تقي الدين من أعز الناس عليه،وأعظمهم عنده ، ولم يحابه في الحق.

قال: وكنت يوما في مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل عليّ شيخ حسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطي، ومعه كتاب حكمي سأل فتحه، وقال: خصمي السلطان، وهذا بساط الشرع، وقد سمعنا

انـك لاتحابي، فقلـت : وفي أي قضيـة هـو خصمـك، فقـال: إن سنقـر الخلاطـي كان مملـوكـي، ولم يزل على ملكـي إلى أن مـات، وكان في يـده أموال عظيمة كلها لي، ومات عنها، واستـولى عليها السلطان وأنا مطالبه، فقلت: يـاشيخ وما الـذي أقعدك إلى هذه الغـاية فقال: الحقـوق لاتبطل بالتـأخير، وهذا الكتاب الحكمـي ينطق بأنه قـد اشتراه من فلان التـاجر بأرجيش في اليوم الفلاني من شهر كـذا من سنة كذا، وأنه لم يزل في ملكه إلى أن شذ عن يده في سنة كذا، وماعـرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكـه بوجـه وتمم الشرط إلى آخره، فتعجبـت من هـذه القصة،وأعلمـت السلطـان بذلـك، فأحضره واستـدنـاه حتى جلـس بين يدي، وكنـت إلى جانبه ثم انفـرك من طرّاحته حتى ساواه رحمه الله تعالى، ثـم ادّعى الرجل وفتح كتابه وقرىء تاريخه، فقـال السلطان :إن لي من يشهد أن سنقر هذا كان في ملكـي وفي يدي بمصر، وأني اشتريته مـع ثمانية أنفس في تـاريخ متقدم على هذا التـاريخ بسنة وأنه لم يزل في يـدي وملكي إلى أن اعتقته، ثم استحضر جماعة مـن أعيان الأمراء المجاهـدين فشهدوا بذلـك وحكوا القضية كماذكـرها، وذكـروا التاريخ كما ادّعـاه، فأبلس الـرجل فقلـت له: يامولانـا هذا الرجل مـا فعل ذلك الا طلبا لمراحـم السلطان، وقد حضر بين يدي المولى ومايحسـن أن يرجع خائب القصد، فقال: هـذا باب آخر، وتقدّم له بخلعة ونفقة بالغة.

قال: فانظر إلى ما في طي هذه القضيـة من المعاني الغريبة العجيبة من التواضـع والانقياد إلى الحق وإرغـام النفس، والكـرم في موضـع المؤاخذة مع القدرة التامة رحمة الله عليه.

قال: وكرمه كان أظهر مـن أن يسطر، كان رحمه الله يهب الأقاليم وفتح آمد فطلبها منـه ابن قرا أرسلان فأعطـاه إياها، ورأيته وقـد اجتمع عنده وفود بـالقدس ولم يكـن في الخزانة مانعطيهـم، فباع قـرية مـن بيت المال وفضضنا ثمنها عليهـم ولم يفضل منه درهم واحد، وكـان يعطي في وقت

الضائقة كما يعطى في حال السعة، وكان نواب خزانته يخفون عنه شيئا من المال حذر أن يفجأهم لعلمهم أنه متى علم به أخرجه، وسمعته يوما يقول: يمكن في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب، فكأنه أراد بذلك نفسه، وكان يعطي فوق مايؤمل الطالب،وماسمعته يقول: أعطينا لفلان، وكان يعطي الكثير، ويبسط وجهه للمعطى بسط من لم يعط شيئا، وكان الناس يستزيدونه في كل وقت، وماسمعته قط يقول: قد زدت مرارا فكم أزيد؟ وأكثر الرسائل في ذلك كان يكون على لساني ويدي وكنت أخجل من كثرة مايطلبون، ولا أخجل منه لعلمي بعدم مؤاخذته بذلك، وماخدمه قط أحد الاّ وأغناه عن سؤال غيره.

وأما تعدد عطاياه فقال: حصرنا عدد ماوهب من الخيل بمرج عكا لاغير فكان عشرة آلاف رأس، ومن شاهد مواهبه يستقل هذا القدر، اللهم إنك ألهمته الكرم، وأنت أكرم الأكرمين فتكرّم عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحمين.

قال: وكان رحمه اللهمن عظماء الشجعان،قوي النفس شديد البأس،عظيم الثبات لايهوله أمر، ولقد رأيته مرابطا في مقابلة عدة عظيمة من الفرنج، ونجدهم تتواصل، وعساكرهم تتواتر، وهو لايزداد إلا قوة نفس، وصبرا، ولقد وصل في ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركبا على عكا، وأنا أعدها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس، وهو لايزداد إلا قوة نفس، ولقد كان يعطي دستورا في أوائل الشتاء، ويبقى في شرذمة يسيرة في مقابلة عدّتهم الكثيرة، ولقد سألت باليان بن بارزان،وهو من كبار ملوك الساحل، وهو جالس بين يديه يوم انعقاد الصلح عن عدتهم الكثيرة، فقال الترجمان عنه أنه يقول كنت أنا وصاحب صيدا وكان أيضا من ملوكهم وعقلائهم قاصدين عسكرنا من صور، فلما أشرفنا عليه تحاورنا فحزره هو بخمسمائة ألف، وحزرته أنا بستمائة ألف، أوقال عكس ذلك، فقلت: كم هلك منهم؟ فقال: أما بالقتل فقريب

مائة ألف، وأما بالموت والغرق فلا يعلم، ومارجع من هذا العالم إلا الأقل.

قال: وكان لابدّ له من أن يطوف حول العدو كل يوم مرة أو مرتين إذا كنا قريبا منهم، وكان إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد، وعلى يده جنيب، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة يرتب الأطلاب ويأمرهم بالتقدّم والوقوف في مواضع يراها،وكان يشارف العدو ويجاوره، ولقد قرىء عليه جزء من الحديث بين الصفين، وذلك أني قلت له قدسمع الحديث في جميع المواطن الشريفة، ومانقل أنه سمع بين الصفين، فإن رأى المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسنا، فأذن في ذلك فأحضر جزءا هناك من له به سماع، فقرىء عليه ونحن على ظهور الدواب بين الصفين يمشي تارة ويقف أخرى، وما رأيته استكثر العدو أصلا، ولا استعظم أمرهم قط، وكان مع ذلك في حال الفكر والتدبيريذكر بين يديه الأقسام كلها، ويرتب على كل قسم مقتضاه من غير حدّة ولا غضب يعتريه، ولقد انهزم المسلمون في يوم المصاف الأكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله، ووقع الكوس والعلم وهوثابت القدم في نفر يسير، وقد انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردّهم ويخجلهم حتى يرجعوا، ولم يزل كذلك حتى عكس المسلمون على العدو في ذلك اليوم، وقتل منهم زهاء سبعة آلاف مابين راجل وفارس، ولم يزل مصابرا لهم وهم في العدة الوافرة إلى أن ظهر له ضعف المسلمين فصالح وهومسؤول من جانبهم، فإن الضعف والهلاك كان فيهم أكثر، ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة، ونحن لانتوقعها، وكانت المصلحة في الصلح.

وكان رحمه الله يمرض ويصح وتعتريه أحوال مهولة وهوصابر مرابط وتتراءى النيران ونسمع منهم صوت الناقوس، ويسمعون منا صوت الآذان إلى أن قضي الأمر.

قال: وكان رحمه الله شديد المواظبة على الجهاد عظيم الاهتمام به ولو حلف حالف أنه ماأنفق بعد خروجه إلى الجهاد دينارا ولا درهما إلا في الجهاد، وفي الارفاد، لصدق وبر في يمينه، ولقد كان الجهاد وحبه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما، بحيث ماكان له حديث إلا فيه ولا نظر إلا في آلته، ولا اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنةويسرة، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحة على مرج عكا، فلو لم يكن في البرج لقتلته ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماما.

قلت: وشواهد ماذكر القاضي من ذلك كثيرة، وقد سبقت مفرقةفي وقعاته رحمه الله، منها ماقاساه على حصار كوكب من الأمطار والأوحال، وقال الرشيد بن النابلسي من قصيدة له:

ما أبهج الدين والدنيا بالكهاالصـ
ـديق يوسف لا لاذت به الغير
ملك تساوى جمادى في الجهاد وتمـ
ـموز لديه وضاهى ناجراً صفر
فليس يثنيه حران توقد عن
رضى الاله ولا إن اغدق المطر
ولا ينهنهه عما يكابده
ضجّ أعيذ معاليه ولا ضجر
ولا يرى الروح إلا ظهر سلهبة
في بطن معركة مركوبها وعر
صبر جميل كطعم الشهد في فمه
وعند كل مليك طعمه الصبر

قال القاضي: وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على

الجهاد،أويذكر شيئا من أخبار الجهاد،ولقد ألف له كتب عدّة في الجهاد،وأنا ممن جمع له فيه كتابا جمعت به آدابه، وكل آية وردت فيه، وكل حديث روي فيه، وشرحت غريبها، وكان رحمه الله كثيراً مايطالعه حتى أخذه منه ولده الأفضل.

قال: ولأحكين عنه ماسمعت منه في ذلك، وذلك أنه كان قد أخذ كوكب في ذي القعدة سنة أربع وثمانين، وأعطى العساكر دستورا وأخذ عسكر مصر في العود إلى مصر، وكان مقدمه أخاه العادل، فسار معه ليودعه، ويحظى بصلاة العيد في القدس ففعل ووقع له أنه يمضي معهم إلى عسقلان ويودعهم، ثم يعود على طريق الساحل ويتفقد البلاد الساحلية إلى عكا، ويرتب أحوالها، فأشاروا عليه أن لايفعل فإن العساكر إذا فارقتنا نبقى في عدة يسيرة ، والفرنج كلهم بصور، وهذه مخاطرة عظيمة، فلم يلتفت وودع أخاه والعسكر بعسقلان، ثم سرنا على الساحل طالبي عكا، وكان الزمان شتاء عظيما، والبحر هائجا هيجاناعظيما، وموجه كالجبال ، كماقال الله تعالى، وكنت حديث عهد برؤية البحر، فعظم أمر البحر عندي حتى خيل لي أنني لو قال لي قادر: لو جزت في البحر ميلا واحدا ملكتك الدينا، لما كنت أفعل، واستخففت رأي من يركب البحر رجاء كسب دينار أو درهم واستخففت رأي من لايقبل شهادة راكب البحر، هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتموجه، فبينا أنا في ذلك اذ التفت اليّ وقال: في نفسي انه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتبعهم فيها حتى لاأبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت، فعظم وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ماكان يخطر لي، وقلت له ليس في الأرض أشجع نفسا من المولى، ولا أقوى نية منه في نصرة دين الله، وحكيت له ماخطر لي، ثم قلت ما هذه إلاّنية جميلة، ولكن المولى يسير في البحر العساكر، وهو سور الاسلام ولاينبغي أن يخاطر بنفسه، فقال:

أنا أستفتيك ماأشرف الميتات؟ فقلت: الموت في سبيل الله، فقال:غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات، قال: انظر الى هـذه الطوية ماأطهرها، وإلى هذه النفس مـاأشجعها وأجسرها، اللهم إنك تعلم أنـه بذل جهده في نصرة دينك رجاء رحمتك فارحمه.

قال: وأما صبره فلقد رأيته بمرج عكـا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثـرة دماميـل، كانـت ظهرت عليـه من وسطـه إلى ركبته بحيـث لايستطيـع الجلوس، وإنما يكـون متكئـا على جـانبه إذا كـان في الخيمـة، وامتنع من مد ألطعـام بين يديه لعجزه عن الجلوس، وكـان يأمر أن يفرق على الناس، وكان مـع ذلك كله يركـب من بكرة النهار إلى صـلاة الظهر يطوف على الأطـلاب، ومن صلاة العصر إلى صـلاة المغرب وهو صـابر على شدّة الألم وقوّة ضربـان الدمامل، وكان يعجب مـن ذلك فيقول رحمه الله: إذا ركبـت يزول عنـي ألمها حتـى أنزل، وهـذه عنـاية ربـانية، ولقـد مرض ونحن على الخروبـة،وكان قد تأخـر عن تل الحجل بسبـب مرضه، فبلغ الفرنـج ذلك فخرجوا طمعـا في أن ينالوا من المسلمين شيئـا بسبب مرضه، وهي نوبة النهر فخرجـوا في مرحلة إلى الآبار التي تحت التل، ثم رحـل العدو في اليـوم التالي يطلبنـا، فركـب رحمه الله على مضض ورتـب العسـاكر للحـرب وجعل أولاده في القلـب، ونزل هـو وراء القوم بطلبـه، وكلما سـار إلى العدو يطلـب رأس النهـر سار هـو يستـدير إلى ورائهـم، حتـى يقطع بينهـم وبين خيـامهم، وهـو رحمه الله يسير سـاعـة ثم ينـزل يستريح ويظلل بمنديل على رأسه مـن شدة وقع الشمس، ولا ينصب له خيمة حتى لايـرى العدو ضعفا، ولم يزل كـذلك حتى نزل العـدو برأس النهر ونزل هـو على تل قبالتهم مطـل عليهم إلى أن دخل الليل، ثـم أمر العساكر أن تعود إلى محل المصابرة وأن يبيتوا تحت السلاح، وتأخر هو إلى قمة الجبل، وضربت له خيمة لطيفة، وبات تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرضه ونشاغلـه، وهوينام تارة ويستيقظ تارة أخـرى حتى لاح الصباح، ثـم ضرب البوق وركـب رحمه الله، وركبت العسـاكـر، وأحدقـت بالعـدو

ورحل العدو عائدا إلى خيمه من الجانب الغربي للنهر، وضايقه المسلمون مضايقة شديدة، وفي ذلك اليوم قدّم أولاده بين يديه احتسابا: الأفضل والظاهر، والظافر، وجميع من حضره منهم، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا وطبيب وعارض ا لجيش والغلمان بأيديهم الأعلام والبيارق لاغير فيظن الرائي لها عن بعد أن تحتها خلقا كثيرا، وليس تحتها إلا واحد يعد بخلق عظيم رحمه الله، وبقي في موضعه والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو إلى آخر النهار، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ماباتوا عليه بارحتهم، وبتنا على مابتنا عليه إلى الصباح، وعاد العسكر إلى ماكان عليه بالأمس من مضايقة العدو.

قال: ولقد رأيته ليلة على صفد وهويحاصرها، وقال :لاننام الليلة حتى ينصب لنا خمسة مجانيق، ورتب لكل منجنيق قوما يتولون نصبه وكنا طول الليل في خدمته في ألذ فكاهة وأرغد عيشة والرسل تتواصل مخبرة بأنه نصب من المنجنيق الفلاني كذا، ومن الآخر كذا حتى أتى الصباح وقد فرغ منها، وكانت من أطول الليالي وأشدّها برداً ومطراً.

قال :ولقد رأيته وقد جاءه خبر وفاة ولد له بالغ أو مراهق يسمى اسماعيل، فوقف على الكتاب، ولم يعرف أحد ولم نعرف حتى سمعناه من غيره، ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينه رحمه الله.

قال: ولقد رأيته وقد وصله خبر وفاة تقي الدين، ونحن في مقابلة الفرنج جريدة على الرملة، وفي كل ليلة تقع الصيحة فتقلع الخيام،ويقف الناس على ظهر إلى الصباح والعدو بيازور بيننا وبينه شوط فرس لاغيرها، فأحضر العادل وابن جندر وابن المقدم وابن الداية سابق الدين، وأمر بالناس فأُبعدوا عن الخيمة بحيث لم يبق حولها أحد عن غلوة سهم، ثم أظهر الكتاب ووقف عليه وبكى بكاء شديدا حتى أبكانا

من غير أن نعلم السبب، ثم قال رحمه الله والعبرة تخنقه: توفي تقي الدين، فاشتد بكاؤه وبكاء الجماعة، ثم عدت إلى نفسي فقلت: أستغفر الله من هذه الحالة وانظروا أين أنتم، وأعرضوا عما سواه، فقال رحمه الله: نعم أستغفر الله، وأخذ يكررها ثم قال: لايعلم هذا أحد.

قال: وكان رحمه الله شديد الشوق والشغف بأولاده الصغار، وهو صابر على مفارقتهم راض ببعدهم عنه، وكان صابرا على مر العيش وخشونته مع القدرة التامة على غير ذلك احتسابا لله تعالى، اللهم إنه ترك ذلك كله ابتغاء لمرضاتك فارض عنه.

قال: ولقد كان رحمه الله حليما متجاوزا قليل الغضب، ولقد كنت بخدمته بمرج عيون قبل خروج الفرنج إلى عكا، يسر الله فتحها، وكان من عادته أنه يركب في وقت الركوب، ثم ينزل فيمد الطعام ويأكل مع الناس، ثم ينهض إلى خيمة خاصة له ينام فيها ثم يستيقظ من منامه ويصلي ويجلس خلوة، وأنا في خدمته يقرأ شيئا من الحديث أوشيئا من الفقه ولقد قرأ عليّ كتابا مختصرا لسلم الرازي يشتمل على الأرباع الأربعة من الفقه، فنزل يوما على عادته ومدّ الطعام بين يديه ثم عزم على النهوض فقيل له: إن وقت الصلاة قد قرب، فعاد إلى الجلوس وقال: نصلي وننام، ثم جلس يتحدث حديث متضجر وقد أخلي المكان إلا عمن لزم، فتقدم إليه مملوك كبير محترم عنده وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين، فقال له: أنا الآن ضجر أخرها ساعة، فلم يفعل وقدّمها إلى قريب من وجهه الكريم بيده وفتحها بحيث يقرؤها، فوقف على الاسم المكتوب في رأسها فعرفه وقال :رجل مستحق، فقال يوقع له المولى فقال: ليست الدواة حاضرة الآن، وكان رحمه الله جالسا في باب الخركاة بحيث لايستطيع أحد الدخول إليها والدواة في صدز الخركاه والخركاة كبيرة، فقال له المخاطب هاهي الدواة في صدر الخركاه، قال القاضي :فليس لهذا معنى إلاأمره إياه بإحضار الدواة لاغير، فالتفت رحمه الله فرأى

الدواة، فقال: والله صـدق، ثم استند على يده اليسرى، ومـد يده اليمنى، واحضرهـا، ووقع لـه، فقلت: قـال الله تعالى في حـق نبيه صلى الله عليـه وسلم:(وانك لعلى خلق عظيم)(١٣٨) وماأرى المولى إلا قد شاركه في هذا الخلـق، فقـال: مـاضرنـا شـيء قضينا حـاجتـه، وحصـل الثـواب، قـال القاضي: ولـو وقعت هـذه الواقعة لآحـاد الناس لقـام وقعد، ومـن الذي يقدر أن يخاطب أحـدا هو تحت حكمه بمثل ذلك، وهذا غـاية الاحسان والحلم، (والله لايضيع أجر المحسنين)(١٣٩).

قال: ولقد كـانت طراحته تـداس عند التزاحم عليـه لعرض القصص وهو لايتـأثر لـذلك، ولقـد نفرت يـوما بغلتـي من الجمال وأنـا راكب في خدمتـه، فزحمت وركه حتـى آلمته وهو يتبسـم، ولقد دخلت بين يـديه في يوم ريح مطير إلى القـدس،كثير الوحل، فنضحت البغلـة عليه من الطين حتى أهلكـت جميع ماكـان عليه، وهو يتبسـم،وأردت التأخر عنـه بسبب ذلك فما تـركني ، ولقد كـان يسمع من المستغيثين إليـه والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع ويلقى ذلك بالبشر و القبول.

ثم قال القاضي: وهذه حكاية يندر أن يسطر مثلها، فذكر ماتقدم من امتنـاع عسكره مـن الهجـوم على ملـك الانكلتيز، وهـو في جمع يسير مـن اصحـابه بعـد أن أطـافـوا بهم، وواجه الجنـاح السلطـان بـذلك الكـلام الخشن، فرجع السلطان مغضبا وظـن أنه ربما صلب وقتل في ذلك اليوم، فنـزل بيـازور، وقـد وصلـه مـن دمشـق فـاكهـة كثيرة فطلـب الأمـراء ليأكلوا،فحضروا فـرأوا من بشره وانبساطه ماأحـدث لهم الطمانينة والأمن والسرور.

قال: وكـان رحمه الله كثير المروءة، ندي الـوجه كثير الحيـاء منبسطا لمن يرد عليه من الضيـوف، يكرم الوافد عليه،وإن كان كافـرا، ولقد وفد عليه البرنس صـاحب أنطاكيـة فما أحس بـه إلا وهو واقف على بـاب خيمته،

بعد وقوع الصلح في شوّال عند منصرفه من القدس الى دمشق، وقد تقدم ذلك وعرض له في الطريق، وطلب منه شيئا، فأعطاه العمق وهي بلاد كان أخذها منه عام فتح الساحل سنة أربع وثمانين، ولقد رأيته وقد دخل إليه صاحب صيدا فاحترمه واكرمه وأكل معه، وعرض عليه الاسلام وذكر له طرفا من محاسنه وحثه عليه، وكان يكرم من يرد عليه

من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار، وكان يوصينا لئلا نغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين ، حتى نحضرهم عنده وينالهم من احسانه، ولقد مر بنا سنة أربع وثمانين رجل جمع بين العلم والتصوف وكان من ذوي الأقدار، وكان أبوه صاحب توريز، فأعرض هوعن فن أبيه واشتغل بالعلم والعمل، وحج ووصل زائرا لبيت الله المقدس، ولما قضى لبانته منه ورأى اثار السلطان فيه، وقع له زيارته فوصل إلينا إلى العسكر، فلقيته ورحبت به، وعرفت السلطان وصوله فاستحضره وشكره عن الاسلام وحثه على الخير، وانصرف وبات عندي في الخيمة ،فلما صلينا الصبح أخذ يودّعني، فقبحت له المسير بدون وداع السلطان فلم يلتفت ولم يلو على ذلك وقال: قضيت حاجتي منه ولاغرض لي فيما عدا رؤيته وزيارته، ثم انصرف من ساعته ومضى على ذلك ليال، فسأل السلطان عنه فأخبرته بفعله،فظهر عليه اثار العتب كيف لم اخبره برواحه، وقال: كيف يطرقنا مثل هذا الرجل وينصرف عنا من غير احسان يمسه منا، وشدّد النكير عليّ في ذلك، فماوجدت بدا من أن أكتب كتابا إلى محيي الدين قاضي دمشق، كلفته فيه السؤال عن حال الرجل، وايصال رقعة كتبتها اليه طي كتابي أخبرته فيها بانكار السلطان رواحه من غير اجتماع به، وحسنت له فيها العود وكان بيني وبينه صداقة تقتضي مثل ذلك فعاد واجتمع بالسلطان، فرحب به وانبسط معه واستوحش له، وأمسكه أياما ثم خلع عليه خلعة حسنة،و أعطاه مركوبا لائقا وثيابا كثيرة ليحملها إلى أهل بيته وأتباعه وجيرانه، ونفقة يرتفق بها، وانصرف عنه وهو أشكر الناس له وأخلصهم دعاء لأيامه.

قال: ولقد ر أيته رحمه الله وقد مثل بين يديه أسير فرنجي ، وقد هابه بحيث ظهر عليه أمارات الخوف والجزع ، فقال له الترجمان : من أي شيء تخاف فأجرى الله على لسانه أن قال: كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه، فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه أيقنت أني ما أرى إلا خيرا فمنّ عليه وأطلقه، ورق له.

قال: وكنت راكبا في خدمته في بعض الأيام قبالة الفرنج ووصل بعض اليزكيةومعه امرأة شديدة التحرق، كثيرة البكاء متواترة الدق على صدرها، فذكر قصة أم الرضيع الذي سرق وقد مضت.

قال: وكان رحمه الله لايرى الاساءة إلى من صحبه وإن أفرط في الجناية، ولقد بدل في خزانته كيسان من الذهب المصري بكيسين من الفلوس فما عمل بالنواب شيئا سوى أنه صرفهم من عملهم لاغير، وكان رحمه الله حسن العشرة لطيف الأخلاق طيب الفكاهة، حافظا لأنساب العرب ووقائعهم، عارفا بسيرهم وأحوالهم ، حافظا لأنساب خيلهم، عالما بعجائب الدنيا ونوادرها، بحيث كان يستفيد محاضره منه مالايسمعه من غيره، وكان يسأل الواحد مناعن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه، وتقلبات أحواله ، وكان طاهر المجلس لايذكر بين يديه أحد إلا بالخير، وطاهر السمع فلا يحب أن يسمع عن أحد إلا بالخير، وطاهر اللسان فما رأيته أولع بشتم قط، وطاهر القلم فما كتب بقلمه أذى لمسلم قط، وكان حسن العهد والوفاء فما أحضر بين يديه يتيم إلا وترحم على مخلفه، وجبر قلبه وأعطاه خبز مخلفه، إن كان له من أهله كبير يعتمد عليه وسلمه إليه، وإلا أبقى له من الخبز مايكفي حاجته، وسلمه إلى من يكفله ويعتني بتربيته، وكان مايرى شيخا إلا ويرق له ويعطيه ويحسن إليه، ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله عز وجل إلى مقر رحمته، ومحل رضوانه.

قلت: ولجعفر بن شمس الخلافة من قصيدة رثاه بها:

ألست ترى كيف انبرى الخطب ثائرا
ومدّيداً منه إلى دافع الخطب
إلى الناصر الملك الذي ملئت به
قلوب البرايا من رجاء ومن رعب
كريم أتاه الموت ضيفا فلم يكن
لينزله إلا على السهل والرحب
ولو خاب منه قبل ذلك سائل
لخاب وليس البخل من شيم السحب
قضى فقضى المعروف وانقرض الندى
وحطت رحال الوفد في الشرق والغرب
أفاض على الدنيا سجال نواله
فغاضت عليه أعين العجم والعرب
ولو أنه يبكى على قدر حقه
أسال دموع المزن من أعين الشهب
جزاه عن الاسلام خيرا إلهه
فما مل عنه من دفاع ومن ذب
تداركه بعد ابتذال فقد غدا
وكان شديد الخوف من مقارنة الصلب
أذل الله العدا مذ أطاعه
وسهل منهم كل ممتنع صعب
سقى الخلد عند الله دار مقره
يمتع منه بالجوار وبالقرب

فصل

في انقسام ممالكه بين أولاده وأخوته وبعض ماجرى بعد وفاته

قال العماد في كتاب البرق: خلف السلطان سبعة عشر ولداً.

أكبرهم الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي، ومولده بمصر يوم عيد الفطر سنة خمس وستين وخمسمائة، وتولى بعده دمشق إلى أن خرج منها إلى صرخد، وتولاها عمه العادل في شعبان سنة اثنتين وتسعين مضافة إلى ممالكه بالبلاد الشرقية والجزيرة وديار بكر.

ثم الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان، ومولده بمصر ثامن من جمادى الاولى سنة سبع وستين، وتوفي بها في ملكه ليلة الاحد العشرين من محرم سنة خمس وتسعين، وتولى بعده احد اولاده الصغار.

ثم الملك الظاهر غياث الدين غازي، ومولده بمصر منتصف شهر رمضان سنة ثمان وستين، وتولى حلب واعمالها.

قال :ولقد أنشأت الرسالة الموسومة بالعتبى والعقبى فيما طرأ بعد السلطان إلى آخر سنة اثنتين وتسعين.

وقال في كتاب الفتح :تولى الملك الأفضل دمشق والساحل ومايجري مع ذلك من البلاد، وهو الذي حضر وفاة والده، وقام بسنة العزاء، وفرض الاقتداء بأبيه في إيلاء الآلاء وإدناء الاولياء، وخلع على الاماثل والامراء والافاضل والعلماء وآوى اليه اخوته، وضم جماعته، وجهز اخاه الظافر خضرا مظفر الدين وانهضه لانجاد عمه العادل، كما سنذكره، وكانت حمص والمناظر والرحبة وبعلبك ومايجري معها في المملكة

الافضلية داخله، وقدم عليه سلطاناهما الملكان المجاهد والامجد الى دمشق، فتأكدت بينهم القرابة والالفة، ولما استقر الافضل بدمشق في مقام والده قدّم الى الديوان العزيز نجابين بانهاء الحال، ثم ندب ضياء الدين بن الشهرزوري في الرسالة، واصحبه عّدة والده في الغزاة وسيفه، ودرعه وحصانه، واضاف الى ذلك من الهدايا والتحف والخيل العراب مااستنفد وسعه وامكانه، فما تهيأ مسير الرسول إلا في اواخر جمادى الآخرة، حتى حصل كل ما أراد من الهدايا الفاخرة، وحتى كاتب مصر وحلب واعلم بمسير رسوله، حتى لايظن انه انفرد بسوله، وقصد مداراة اخوته، وفضل بفضل نخوته، وذلك بعد ان جدّد نقش الدينار والدرهم بسمتي امير المؤمنين وولي العهد عدّة الدين.

وقال ابن القادسي: وفي يوم الثلاثاء مستهل رمضان حمل ابن الشهرزوري ماكان أصحبه الافضل من حمل الشام الى الديوان العزيز، وهو صليب الصلبوت الذي كان قد أخذه والده، وذكر أنه ذهب يزيد على العشرين رطلا مرصعا بالجواهر، ومعه خادم مختص بخدمته، وحمل فرس أبيه وزرديته وخوذته وكانت صفراء مذهبة، ودبوس حديد وسيف وأربع زرديات، وقالوا هذه تركته وبها كان يقاتل، وتحفا جمة من الثياب، وحمل في جملة التحف أربع جوار من بنات ملوك الروم فيهن ابنة بارزان، وبنت صاحب جبلة.

قال العماد: وأمرني بانشاء الكتب وتحريرها، وتقريب المقاصد وتقريرها، منها :«اصدر العبد هذه الخدمة وصدره مشروح بالولاء، وقلبه معمور بالصفاء، ويده مرفوعة الى السماء للابتهال بالدعاء، ولسانه ناطق بشكر النعماء، وجنانه ثابت من المهابة والمحبة على الخوف والرجاء، وطرفه مغض من الحياء، وهو للارض مقبل، وللفرض متقبل، وهو يمت بما قدمه واسلفه من الخدمات وذخره ذخر الأقوات لهذه الأوقات، وقد أحاطت العلوم الشريفة بأن الوالد السعيد الشهيد الشديد السديد المبير

للشرك المبيد، لم يزل أيام حياته، وإلى ساعة وفاته مستقيما على جدد الجدّ، مستقيما في صون فريضة الجهاد إلى بذل الجهد، ومصر بل الامصار باجتهاده في ا لجهاد شاهده، والأنجاد والأغوار في نظره واحدة، والبيت المقدس من فتوحاته، والملك العقيم من نتائج عزماته، وهو الذي ملك ملوك الشرق وغل اعناقها، وأسر طواغيت الكفر وشدّ خناقها، وقمع عبدة الصلبان وقطع اصلابها، وجمع كلمة الايمان وعصم جنابها، ونظم أسبابها، وسدّ الثغور وسدد الأمور، وقبض وعدله مبسوط وامره محوط، ووزره محطوط، وعمله بالصلاح منوط، وماخرج من الدنيا الا وهو في حكم الطاعة الإمامية داخل، وبمتجرها الرابح الى دار المقامة راحل، ولم تكن له وصية الا بالاستمرار على جادتها والاستكثار من مادتها، وان مضى الوالد على طاعة إمامه، فالمماليك أولاده وأخواه في مقامه».

قال: وتولى ولده الملك العزيز أبو الفتح عثمان مصر وجميع اعمالها، وأبقاها على اعتدالها، ونقاها من شوائب اختلالها واعتلالها، واحيى سنتي الجود والباس، وثبت القواعد من حسن السياسة على الاساس، واطلق كل ماكان يؤخذ من التجار وغيرهم باسم الزكاة، وضاعف ماكان يطلق برسم العفاة، وقدّم أمر بيت الله المقدس وعجل له عشرة آلاف دينار مصرية لتصرف في وجوه ضرورية، ثم أمده بالحمل، وأفاض عليه من الفضل، وقرر واليه عز الدين جرديك على ولايته، وأقوى يده برعايته، ووالى حمل الغلات من مصر إلى القدس، وابدل وحشته بوفاة السلطان من وفائه بالانس، ثم أشفق من غدر الفرنج في فسخ الهدنة، فأتى من تجهيز العساكر الى البيت المقدس بكل ما في المكنة، ثم سمع بحركة المواصلة ومن تابعهم، وبايعهم وشايعهم، وقد خرجوا في ايمانهم حانثين، فخيم ببركة الجب واستشار امراءه أهل الرأي واللب، وجهز جيشا فوصلوا إلى دمشق وقد فرغ العادل من حرب القوم وسلمهم،وهز منهم أعطاف الاستكانة له بعد هزمهم، فرأى ان الحمد اعود.

قال :وتـولى حلب وأعمالها وحصونهاومعاقلهـا وكرائم البلاد وعقـائلها الملـك الظـاهر غـازي، وهـو بـرجـاحته وسماحتـه الطـود والجود الموازن الموازي، وملـك مملكـة أقطـارهـا واسعة، وأمصـارهـا شـاسعـة، فحماهـا وحواها، وبناء العدل رواها وقـوّاها، وأقر البيرة وأعمالهاومايجري معها على أخيه الملك الزاهر مجير الدين داود، ودخل في امره صاحب حماه ابن تقي الدين فأعزه وحماه.

قلت :وهو مأوى ذرّية والده، وبقـي الملك منهم في عقبه، وانحاز كل من أخـوته وأولادهم إليـه، وعوّلوا في تمشية أمـورهم عليه، والأمـر مستمر على ذلك في عقبه إلى الآن، والله تعالى ولي الاحسان.

ثـم زال ملك هـذا البيت في صفـر سنة ثمان وخمسين وستمائة بسبـب غلبة التتار الكفرة على ا لبلاد، والله بصير بالعباد.

ومـن كـلام القـاضي الفـاضل في جـواب ورد عليـه منـه بعـد مـوت السلطان:«متـى رأى المملوك خـط مولانا طـالعا في كتـاب، وطليعة على خطاب،تمثـل ذلك الشخـص الكريـم، وذلك السلطـان العظيم، وذلـك الخلق الكريم، وذلـك العهد القديم، فحيي بعد موتـه، وسبح من(يحيي العظـام وهي رميـم)(١٤٠) ،ورفـع يـده بما الله رافعه، ودعـا بصـالـح الله سامعه».

قال العماد: وكـان الملك العـادل مع السلطـان في الصيد قبـل وفاتـه، وكان مـوافقه ومرافقـه في مقتضياتـه، فلما عاد السلطان إلى دمشـق ودّعه ومضى إلى حصنـه بالكرك، فنـابه النائب، ولم يحضر وقـت احتضاره الاخ الغـائب، فلما عرف وصـل الى دمشـق بعد أيـام، ولم يطـل المقام ورحـل طالبا لبلاده بالجزيرة، حذراعليهـا من أهل الجريرة، وكان السلطان جعل له كل ماهو شرقي الفرات مـن البلاد والولايات، فلما وصل إلى الفرات

وجد مماخافه دلائل الفترات، فأقام بقلعة جعبر، وسير إلى الولايات الولاة، ووصى برعاياه الرعاة، واستناب في ميافارقين وحاني وسميساط وحرّان والرّها، وشحنها بالشحن وعلم العدا انه في خف، فخفوا وعرضوا وصفوا، وكان سيف الدين بكتمر صاحب خلاط قد استبشر بموت السلطان، وتلقب بالملك الناصر، وحدّث أمله بجر العساكر، وراسل صاحبي الموصل وسنجار، وطير إليهم كتب الاستنفار، وضم إليه من ماردين، وطار وطاش، وارتاش وانتاش، فبينا هو في أثناء ذلك قتلته الاسماعيلية بخلاط رابع عشر جمادى الأولى سنة تسع وثمانين، وأوّل من بدا أمره بالخروج على بلاد السلطان متولى ماردين، ونزل على حصن الموزر، وهذا الحصن كان السلطان اقتطعه عن أعمال ماردين حين صالح أهلها، وأضافه إلى نائبه بالرها، ثم تحرك عز الدين أتابك صاحب الموصل وأخوه عماد الدين زنكي صاحب نصيبين، وأرسلوا إلى العادل: تخرج من بلادنا أو تدخل في مرادنا، فكتب إلى بني أخيه يستنجدهم ويستنفرهم فأنجدوه، وكان إنجاد حلب أقرب، وتقدّم ذكر نجدة الأفضل مع أخيه الظاهر، ونجدة العزيز الواصلة إلى دمشق بعد نجاز الأمر،ووصلت المواصلة الى رأس عين ، والعادل بحران، وتقارب العسكران حتى ان الطلائع تتواجه وتتجابه، فمرض صاحب الموصل ولم يطق الاقامة، فغادر ورجع عماد الدين أخوه، وتضرع صاحب ماردين، وتشفع الأمراء الأكابر فرضي العادل عنه وبلغه قدوم ابن أخيه الظافر إلى الفرات، فكتب إليه بمنازلة سروج وهي من أعمال ماردين، وأمدّه بابن تقي الدين، وابن المقدّم، فنزلوا عليها ثامن رجب وفتحوها تاسعه، ورحل العادل منتصف رجب إلى الرّقة وتسلمها، ثم تملك بلد الخابور جميعه، وجاء الى نصيبين فنزل بظاهرها، وشرع في ضم ذخائرها، فجاءت الرّسل العمادية في طلب الصلح، فرحل ونزل دارا، وأتاه خبر وفاة صاحب الموصل وتسليم بلده إلى ولده نور الدين أرسلان شاه، وجرى بينهم وبينه صلح، ثم كاتبه أهل خلاط،فرحل إليها فرأى أن

البرد يشتـد وأمـد الحصار يمتـد، فعـاد إلى حـران والـرها، وأعـرض عـن مخالطة خلاط، وتأخر إلى الربيع أمرها.

قال: واقليم اليمن مستقر للملك ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين ابن أيوب أخي السلطان، وهو هنـاك سلطان عظيم الشان، مستول على جميع البلـدان، وكان قـدوصل ولده مـع الحاج قبل وفـاة السلطان بـأيام، فلما استقر الملك الأفضل على سرير أبيه كاتب عمه سيف الاسلام.

فصل

في وفاة صاحب الموصل وتتمة أخبار هذه الفتنة ببلاد الشرق

قال عز الدين أبو الحسن علي بن الأثير: لما وصل خبر وفاة صلاح الدين إلى صاحب الموصل عز الدين استشار في الذي يفعله، فأشار عليه أخي مجد الدين أبو السعادات بالاسراع في الحركة، وقصد البلاد الجزرية فإنها لامانع لهامنه. وقال مجاهد الدين قايماز: ليس هذا برأي فإنا نترك وراءنا مثل المولى عماد الدين صاحب سنجار، ومعز الدين صاحب الجزيرة، ومظفر الدين صاحب إربل ونسير، وانما الرأي أنا نراسلهم ونستميلهم ونأخذ برأيهم وننظرمايقولون. فقال أخي: إن كنتم تفعلون مايشيرون به ويرونه فاقعدوا فانهم لايرون إلا هذا لأنهم لايؤثرون حركتكم ولا قوتكم، انما الرأي ان يبرز هذا السلطان ويكاتبهم ويراسلهم، ويستميلهم ويبذل لهم اليمين على مابأيديهم، ويعلمهم انه على الحركة، فليس فيهم من يمكنه أن يخالف خوفا من قصد ولايته لاسيما اذا رأوا جده وخلو البلاد الجزرية من مانع وحام، فهم لايشكون انه يملكها سريعا فيحملهم ذلك على موافقته، ومتى أراد الانسان أن يفعل فعلا لا تتطرق إليه الاحتمالات بطلت أفعاله، انما اذا كانت المصلحة أكثر من المضرة أقدم، وان كان العكس أحجم، فظهرت أمارات الغيظ على مجاهد الدين، فسكت أخي لأنه هو كان مخدوم الجميع على الحقيقة، والحاكم فيهم، واتبع المرحوم—يعني صاحب الموصل— قول مجاهد الدين، وأقام بالموصل عدّة شهور يراسل المذكورين فلم ينتظم بينه وبين أحد منهم حال، غير أخيه عماد الدين فإنهما اتفقا على قواعد استقرت بينهما، فإلى أن انفصل الحال وصل الملك العادل أبوبكر بن أيوب من الشام إلى حران وأقام هناك، وجاءته العساكر من دمشق وحمص وحماه وحلب، وامتنعت البلاد به، وسار عز

الدين عن الموصل إلى نصيبين وقد ابتدأ به اسهال بنزيف، واجتمع فيها بأخيه عماد الدين، وسارا في عساكرهما إلى تل موزن من شبختان لقصد الرها، فأرسل العادل حينئذ يطلب الصلح، وأن تكون البلاد الجزرية: الرها،وحران، والرّقة وما معها بيده على سبيل الاقطاع من عز الدين، فلم يجبه إلى ذلك وقوي المرض به واشتد إلى أن عجز عن الحركة، فعاد إلى الموصل في طائفة يسيرة من العسكر، فلما وصل دنيسر رأى ضعفا شديداً فأحضر أخي، وكتب وصية، ثم سار إلى الموصل فوصلها مريضا بالاسهال، وبقي كذلك إلى أن توفي في السابع والعشرين من شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

قال: ولم أسمع عن أحد من الناس بمثل حاله في مرضه، فإنه كان لايزال ذاكراً الله تعالى حتى أنه كان إذا تحدث مع إنسان يقطع حديثه مراراً، ويقول أشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت، وهو حي لايموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمدا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله، وأشهد أن الموت حق، وعذاب القبر حق، وسؤال منكر ونكير حق، والصراط حق، والميزان حق، وأن الساعة آتية لاريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، ويقول لمن عنده يخاطبه: إشهد لي بهذا عند الله تعالى، ثم يعود إلى حديثه، وأحضر عنده من يقرأ القرآن، فلم يزل كذلك إلى أن توفي رحمه الله ودفن بالمدرسة التي أنشأها بباطن الموصل، مقابل دار المملكة، وهي للفريقين الشافعية والحنفية، وكانت مملكته نحو ثلاث عشرة سنة وستة اشهر، وكان أسمر مليح الوجه حسن اللحية،خفيف العارضين، وحكى لي والدي قال: هو أشبه الناس بجده الشهيد قدس الله روحه، قال: وكان رحمه الله ديِّناً خيراً قد ابتنى في داره مسجدا يخرج إليه في الليل، ويصلي فيه أوراداً كانت له، ويلبس فرجية كان قد اخذها من الشيخ عمر النسائي الصوفي، ويصلي فيها، وكان قد حج ولبس بمكة حرسها الله خرقة التصوف من الشيخ عمر النسائي المذكور، وكان من

الصالحين، وأوصى بالملك لابنه نور الدين أرسلان شاه، وأراد اخوه شرف الدين بن مودود بن زنكي أن يوليه فلم يفعل، وبقي نور الدين إلى سنة سبع وستمائة، فتوفي في شهر رجب منها، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بباطن الموصل حذاء دار السلطنة، وكان عهد بالملك لابنه القاهر عز الدين مسعود، وجعل الامير بدر الدين لؤلؤا القائم بأمر دولته، وولاه إمارة الجيوش والعساكر ، وسياسة القبائل والعشائر، ثم توفي الملك القاهر في ربيع الاول من سنة خمس‌عشرة‌وستمائة فجأة وخلف ثلاثة بنين صغارا.

قال: وأما عماد ا لدين زنكي بن مودود بن زنكي، صهر نور الدين رحمه الله، وهو صاحب سنجار، فإنه توفي في المحرم سنة أربع وتسعين، وكانت ولايته ثلاثين سنة، وكان عدله قد عم البلاد، وغمر العباد، وأريقت الخمور وحدّ شاربها، وكانت صدقاته تصل إلى أقاصي البلاد، وتولى بعده ولده الأكبر قطب الدين محمد بن زنكي، وكان متولي أمره مجاهد الدين يرنقش العمادي.

قال: وحاصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب ماردين في سنة خمس وتسعين، فبقي محاصراً لها أحد عشر شهراً، ولم يبق إلا الاستيلاء عليها، فبينما العادل يحاصرها إذ توفي ابن أخيه ا لملك العزيز صاحب مصر، وكان عسكره مع عمه العادل على ماردين، فلما توفي ملك أخوه الأفضل مصر، وكان بينه وبين عمه العادل نفرة، فلما ملك مصر أرسل إلى العسكر المصري الذي مع عمه يأمرهم بمفارقته، ففارقوه، وعادوا إلى مصر فقل جمعه وعسكره، ثم خرج الأفضل عن مصر عازما على حصر دمشق واستعادتها من عمه، فسار العادل عن ماردين جريدة إلى دمشق ليحفظها بعدما كان قد طلع سنجقه إلى قلعة ماردين، وترك ولده الملك الكامل محمداً محاصراً لها إلى أن اجتمع صاحب سنجار، وصاحب الموصل على ترحيله عنها، فرحل.

قال: وفي سنة ست وستمائة سار الملك العادل بن أيوب من الشام إلى سنجار في العساكر الشامية والمصرية، والجزرية والدياربكرية، فحصرها ونزل عليها من كل جانب، ونصب أحد عشر منجنيقا ثلاثة أشهر، وانتخى صاحب الموصل وصاحب إربل لصاحب سنجار، وأنفذ الخليفة رسله فأصلح الأمر، وانتظم الصلح ولله الحمد.

فصل

وأما رسالة العماد: الكاتب المعروفةبالعتبى والعقبى التي أشار إليها في آخر كتاب البرق، فيما جرى بعد وفاة السلطان إلى سنة اثنتين وتسعين، فقد وقفت عليها، وحاصل مافيها أن قال: لما توفي السلطان رحمه الله، وملكت أولاده كان العزيز بمصر يقرّب أصحاب أبيه، ويكرمهم، والأفضل بدمشق يفعل ضد ذلك يقرّب الأجانب ويبعد الاقارب، وأشار عليه بذلك جماعة داروا حوله كالوزيرالجزري الذي استوزره.

قلت: هو الضياء ابن الأثير أخو عز الدين المؤرخ ومجد الدين وفيه يقول الشهاب فتيان الشاغوري :

متى أرى وزيركم
ومالهمن وزر
يقلعه الله فذا
أوان قلع الجزر

قال العماد:لما طلب من الأمراء أن يحلفوا له ، أظهروا له أيماناً وهم قد أضمروا الحنث فيها ، ولم يخف ذلك عليه ، ولما رأى الفاضل أمور الأفضل مختلة، تركه وسار إلى مصر ، وشرع الوزير الجزري في تفريق العصبة الناصرية، وما منهم إلا من فارق إلى الديار المصرية ، وكان قد أشير على الأفضل بإخلاء البيت المقدس لنواب العزيز بأعماله، حذراً من تكاليفه وأثقاله، فأجاب إلى ذلك، وقد كانت نابلس وأعمالها قد وقف السلطان ثلثها على مصالح القدس، وباقيها على ابن الأمير علي ابن أحمد المشطوب فشاركه أحد الأمراء الأكراد فيه، فمدوا أيديهم إلى الوقف، وساءت سيرتهم وتخوفوا من إنكار الملك العزيز عليهم، فلجأوا إلى الأفضل، فأفضل عليهم وسكن إليهم، فتأثر الملك العزيز بذلك، وأقوى الأسباب فيما حدث من النفار، نفار الأمراء الناصرية الكبار، ومفارقتهم دمشق إلى مصر على سبيل الإضطراب والإضطرار، فأعزهم

العزيـز، ورفعهم فـاتفقوا على أن تكون كلمـة الإسلام مجتمعـة على الملك العزيـز لإحياء سنـة والده في الجود والبأس والكـرم، ومن جملـة الأسباب الباعثة تسلم الفـرنج ثغر جبيل من بعض مستحفظيـه، وضعف الأفضل عن استخـلاصه، فقيل للعـزيز: إن توانيت استـولت الفرنـج على البلاد، فخرج العـزيز بعساكـره، وبلغ الأفضـل فضاق صدره، واجتمـع بمن في خدمتـه من الأمراء بـرأس الماء، وأراد أن يستعطف قايماز النجمـي وكان في اقطاعـه بالسواد، وكـان بينه وبين الأفضل شقـاق وعناد، فأرسـل إليه فلـم يقبل ورحـل إلى عسكر العـزيز، ورأى الأفضـل أن يكتب إلى أخيـه بكـل مـا يحب من إعـلاء كلمتـه والإجتماع عليـه، ويكون الأفضـل مـن بعض القـائمين بين يديه، طلبـاً لتسكين الفتن، ورغبة في ذهـاب الاحن، فـأشير عليـه بغير الصـواب ، وقيل أنـت الكبير وإليـك التـدبير، فجـدّ واجتهـد ولايعلـم أصحـابك بهذا الخور الـذي داخلـك، والجبـن الـذي نازلك، ونحن بين يـديك، وكلنا عاقدون بالخنـاصر عليك، ووصل رسول الملك الظـاهر والكتب مـن الملوك الأكابـر بالانجـاد المتظاهر لـلأفضل، وسير الأفضل إلى عمـه العادل وهـو بحران والـرها كتبـاً ورسلاً، لما أبطـأ عليـه مسير عز الـدين عثمان الـزنجيلي على نجيب ليسرع ويـأتي به عـن قـريـب، وكتبـه واصلـة بعزمـه على نصره ونجـدتـه، وذلـك أوائل جمادى الآخرة من شهور سنة تسعين، ولم يشعر الأفضـل إلا والعزيز بعساكره قد وصلوا إلى الفوّار، فعجل الرحيل وقد خالطت عساكر العزيز ساقه جيش الأفضل، فـأسرع ودخل دمشق يوم الجمعـة خامس جمادى، ونزل العـزيز يوم السبت بالكسوة، ونزل على دمشق يـوم الأحد، فلم يزل الأفضل يمانع ويـدافع حتـى وصـل عمـه العادل، فكتـب إلى العـزيـز يسألـه الإجتماع فتواعدا واجتمعا راكبين بصحراء المزة، فعذلـه في أخيه، واستنزله عما كان فيه، فقال: على رضاك واتباع هواك، وقـال: نفس عن البلد الخناق، وكان قـد بلي البلد منهـم بمالا يطـاق، من قطـع الأنهار، وقطـف الثمار، فتأخـر العـزيز إلى صـوب داريا، والأعـوج، وكان قـد اجتمع عنـد الأفضل مـن

الملوك: عمه العادل، والمجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد ابن شيركوه صاحب حمص، والأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك، والمنصور ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماه، ثم وصل الملك الظاهر غياث الدين ابن السلطان، فاتفقوا على عقد يؤكد، وعهد يمهد، ورحل العزيز إلى مرج الصفر لكون المقام به أرفق، فمرض حتى أيس منه، ثم أفاق وأرسل من جانبه الأمير فخر الدين جركس، واعتمد عليه في هذه النوبة، فوصل إلى العادل في تعديل الأمور، فتقرر بينهم الصلح، وتزوج العزيز ابنة عمه العادل، وخرج الملوك لتوديع الملك العزيز في أول شعبان واحداً بعد واحد، فخرج الظاهر أولاً، والتقيا ونزلا بمرج الصفر، وبات عنده ليلة، ثم رجع وخرج العادل، ثم الأفضل، فلما اجتمع بأخيه فارقه وما ثوى، ورجع كل إلى بلده، ولما استقر الأفضل بدمشق قضى حقوق الجماعة وشكرهم، ورحل الظاهر صوب حلب رابع عشر شعبان، وأقام العادل إلى تاسع شهر رمضان، ورحل إلى بلده الرها وحران، ثم إن الأفضل نظم أبياتاً يكتبها إلى أخيه العزيز في استعطافه واستمالته، وقال: كنت فارقت أخي مذ تسع سنين، وما التقينا إلا في هذه السنة فقلت:

نظرتك نظرة من بعد تسع
تقضت بالتفرّق من سنين
وغض الدهر عنها طرف غدر
مسافة قرب عين من جبين
وعاد إلى سجيته فأجرى
بفرقتنا العيون من العيون
فريح الدهر لم يسمح بوصل
يعود به الهجوع إلى الجفون
فراقاً ثم يعقبه ببين
يعيد إلى الحشا عدم السكون

ولا يبـــدي جيـــوش القـــرب حتـــى
يـــرتـــب جيـــش بعـــد في الكمين
ولا يـــــــدني محلي منـــــــك الا
إذا دارت رحـــى الحرب الـــزبـــون
فليـــت الـــدهـــر يسمـــح لي بـــأخـــرى
ولـــو أمضـــى بها حكـــم المنـــون

قال: ثم كثر الشر ممن حول الأفضل في حق الأمراء الكبار ذوي الأقدار، فأنفوا من ذلك، وازمعوا على الإنفصال لسوء تلك الحال، فممن سار إلى مصر عز الدين سامة، وحرض العزيز على القيام لنصرة الدولة الناصرية، وعرفه أن أخاه الأفضل مسلوب الإختيار، مع من حوله من الأشرار، وممن سار إلى مصر القاضي محيي الدين محمد بن أبي عصرون، وتولى بعد أشهر قضاء القضاة بمصر وأعمالها، وذلك سنة إحدى وتسعين فاستمرت ولايته إلى أن عاد العزيز من الشام، وتبعه العادل فصرفه وأعاد القضاء إلى زين الدين علي بن شرف الدين يوسف الدمشقي، وكان نائباً لصدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس، ثم استقل ثم عزل بابن أبي عصرون ثم أعيد إليه، وكان الأفضل قد اشتغل بعد انصراف أخيه باللذات، وتشاغل عن أمور الناس بإدمان الشراب، مع من حوله من الأصحاب، ثم أقلع عن ذلك وتاب وجدّ في الذكر والزهد وأناب، وشرع في كتب مصحف بخطه، وحسنت طريقته، وظهرت حقيقته، وذلك في أوائل سنة إحدى وتسعين.

وفي هذه السنة في ربيع الآخر وصل الخبر بأن العزيز قادم يحصر دمشق مرة ثانية، فاشتدّ غم الأفضل، فأشير عليه بأن يرحل إلى عمه العادل، ويأتي به لدفع هذا القضاء النازل، فرحل رابع عشر جمادى الأولى والتقى بعمه بصفين، وطلب منه الرجوع معه إلى دمشق ففعل، ووصل العادل إليها تاسع جمادى الآخرة، وتخلف عنه الأفضل، وقصد

حلب للاستظهار بـأخيه الظاهر، فوثق معه الإيمان على مـا كان عليه من الصفا، وكذلك فعل بابن تقـي الدين بحماه، ووصل إلى دمشق واجتمع مع عمه العادل، وكان العادل أبـداً يشير بصرف الوزير الجزري، وكان قد استولى على الأفضـل، فلم يقبل، فكـان العادل أبـداً مغتماً لذلك، فبـالغ الأفضل في إكرام عمه، وإزالة غمه حتى تـرك له سنجقه وصار يركب في خدمـة عمه، وضاق أخوه الظـافر من هـذه الحال، وكان الظاهر قـد نفر عليه جماعـة من الملوك والأمـراء ممن هم في طاعتـه من جملتهم صـاحب حماه، وعز الدين بـن المقدّم صاحب بارين، فـراسلا العادل في الاعتصام بـه، وكان مـن جماعتهـم بدر الـديـن دلـدرم بن بهاء الـدولـة بن يـاروق صاحب تل باشر فاعتقله الظاهـر وبني عمه، وطلب منه تسليم حصنه، فشفع العادل فيهم، وكفل أنه يكفهم ويكفيهم، واستصحبهم إلى دمشق فطلب منـه الظاهـر الوفاء بضمانـه فتعذر عليـه ردّهم، وتيسر لـه ودّهم، فغضب الظاهر لـذلك وراسل العزيز يحثه على الإسراع في القـدوم فأقبل العزيز وخيم بالفوّار .

وشرع العادل في تـدبير أمور الأفضـل، فكاتـب الأمراء الأسـدية مـن أصحاب العزيـز يحثهم على تركه، والانقطاع إلى حـزب الأفضل وسلكه، وكانت الأسـدية أبداً في عناء مـن تقدّم الناصرية عليهـا، وراسل العادل أيضاً العزيـز يخوفه من قبل الأسديـة، ويعرفه ماانطوت عليـه قلوبهم من الغل، فكانوا إذا لقيهـم عرفوا في وجهه التغير عليهم فرغبـوا عنه وحسنوا للأكراد مرافقتهم في الإنصراف عنه، ففعلـوا، وكان أمير أمراء الأكراد أبو الهيجـاء السمين، فـدارت الأكـراد حـولـه وقالـوا: لانـأمـن عليـك مـن الناصريـة فأبرمـواأمرهم، وعجلـوا رحيلهم. فرحـل أبو الهيجاء والمهـرانية والأسديـة عشية الإثنين رابع شـوّال، وكانوا أكثـر العسكر، واعلم العـزيز بهم فما بالى بـانصرافهم، وقـال: صفونـا من أكـدارهم ولم يـأمر أصحـابه باتباعهم وردّهـم ،وبقي في خواصه مقيماً تلك الليلة، ثـم رحل عائداً إلى مصر فجاء رسـول أبي الهيجاء السمين إلى العـادل يعلمه بـرحيل العـزيز

خائفاً، ويأمره بالقدوم ليلحقوه ويأخذوه ويتسلموا ملك الديار المصرية، فتحالف العادل والأفضل على ملك مصر أن يكون للعادل الثلث وللأفضل الثلثان.

وخرجا يوم الأربعاء في الجيوش واستناب الأفضل بدمشق أخاه الأصغر قطب الدين موسى، وأما العزيز فإنه سار وأخذ طريق اللجون والرملة وفرق من الأسدية الذين بالقاهرة أن يفعلوا فعل إخوانهم فيمنعوه من دخول البلد، وكان مقدّمهم الأمير بهاء الدين قراقوش وهو أكبر الأمراء الأسدية قد استنابه العزيز بالديار المصرية فهو مقيم على الصفاء، والمودّة والاخاء، فلما وصل العزيز تلقوه، وإلى ذروة سلطنته رقوه، وأما العادل والأفضل فاجتمعا بالمتخلفين عن العزيز وحرصت الأسدية أن يسبقوا العزيز فلم يقدروا، واجتهدوا أن يدركوه ويتقدّموا فتأخروا فأمرهم العادل بالثبات، وتسلم القدس وأعماله وما يجاوره من أعمال الساحل أبو الهيجاء السمين بأمر الأفضل والعادل فرتب فيها نوابه، وأسكنها أصحابه، وصحبهم إلى الديار المصرية لمحالفة الأسدية ومخالفة الناصرية، فنزل بهم العادل على بلبيس، وكان أوان أخذ زيادة النيل في الإنتهاء والسعر غال، وظهرت ندامة الأسدية، وضعفت معونتهم، وضوعفت مؤونتهم، فخاف من مكرهم والعدول إلى مستقرهم،فأرسل إلى القاضي الفاضل يستوفده للإستزاره، ويسترشده بالإستشارة، فألزمه العزيز بإجابة سؤاله فخرج إليه واستبشر الناس بخروجه رجاء الصلح، وركب العادل وتلقاه على فراسخ واجتمعا وأصلحا الأمور على ما يحب الفريقان، وعفا العزيز عن الأسدية، وأقام العادل عند العزيز وأما الأفضل فإن العزيز خرج إليه وودّعه فانصرف، ومعه أبو الهيجاء السمين وتولى القدس، ووصل الأفضل إلى دمشق غرة المحرم سنة إثنتين وتسعين.

ثم إن الأفضل لازم صيامه وقيامه، وقلل شرابه وطعامه، وحسن شعاره، واستوى ليله ونهاره، ووزيره الجزري قد بلي الناس منه ببلايا،

وهو في غفلة عن تلك القضايا، وكان يدخل إليه ويوهمه من قبل أقوام أنهم عليه، وأنهم يميلون إلى أخيه فيصدّقه الأفضل فيما يدعيه، فصار يبلغ العادل عنه أحوال ما تعجبه بل تغضبه، وصار يتصل به كل من هاجر من الشام إلى مصر، وما منهم إلا من يشكو من الوزير الجزري، وكان قايماز النجمي قد لصق بالعادل، وكذلك عز الدين سامة، وصاهر العادل وظاهره، وكان العادل بمصر، مستوطنا للقصر، فوعد الجماعة بإزالة يد الوزير الجزري وردّه إلى بلاده، وقرّر مع العزيز،تسيير عسكره معه إلى الشام ليمهد له قاعدة الملك في سائر بلاد الإسلام، فاخرج العساكر إلى بركة الجب، وخرج العزيز لتشييعه وذلك مستهل ربيع الأوّل، ووصل الملك الزاهر مجير الدين داود من حلب إلى أخيه العزيز من جانب الظاهر لتسكين هذا الرهج الثائر، ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر، والقاضي بهاء الدين بن شدّاد، ثم إن العادل أشار على العزيز بأن يوافقه على المسير ويرافقه فيه، فرأه عين التدبير، فسارا بالعساكر نحو الشام، ولما انصرفت رسل الظاهر من مصر بما طلبوا مروا بدمشق، فأعلموا الملك الأفضل بما أبرم من الأمر، فضاق صدره، وطال فكره، واستشار أصحابه فأشار عليه شيوخ الدولة بأن يستقبل أخاه وعمه، ويسلم لهما حكمه وأشار الجزري وأصحابه بالتصميم على المخالفة، وترك المجاملة والملاطفة، ثم دخل عليه أخوه الملك الظافر خضر فشجعه وصبره، وتولى أسباب التحصير، وحلفوا الأمراء والمقدّمين، وقطعوا ما فوق المصلى عند مسجد فلوس بفصيل، ورتبوا رجالا حوالي البلد يتناوبون لحفظه في البكرة والأصيل، وتفرّق الأمراء على الأسوار والأبراج، وجاءت الرسل الظاهرية لإظهار المظاهرة، وندب الأفضل فلك الدين أخا العادل إليه منه رسولا، فوصل إلى العسكر العزيزي بالداروم وغزة، ولقي عند العزيز من قوله العزة، فبقي فلك الدين هناك أياماً في إصلاح ذات البين، ولاشك أنهم اشترطوا على الأفضل شروطاً وردّ وه بها وأقاموا ينتظرون الجواب، فنفذ من ذكر أن الأفضل أبى ذلك،

فلما رأى الأكابر وشيوخ الدولة أن الأفضل لايسمع من رأيهم، وأنه عازم على المحاربة، ولا يعدل عن رأي وزيره، مع ما قد عرفه من شؤم تدبيره، شرعوا في إصلاح أمورهم في الباطن، فراسلوا العزيز والعادل واستظهر كل لنفسه، وأقام العسكر مذ عاشر رجب على البلد مستظهراً بالعدد والعدد، لايحدث حدثاً، ولا يعبث بالبلد إلا عبثاً، فكتب الأولياء من البلد إلى العزيز والعادل بانتهاز الفرصة، فركبوا وتأهبوا يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب، فما صدهم عن قصد البلد أحد، وما كان في طريقهم إلا الملك الظافر ومعه عسكر حلب، فقاتل على ظن قتال الجماعة، وما عنده علم بما دبروه من المخامرة، فحادوا ولم يكترثوا، ووصل العزيز إلى الميدان الأخضر، ووصل العادل إلى باب توما وكان الأمير الأمين به قداستنهضه إليه بكتبه، ففتحه له فدخل العادل وأصحابه من باب توما والباب الشرقي، وبات العادل في الدار الأسدية، ودخل العزيز من باب الفرج، وبات في دار عمته الحسامية، وخرج إليه الأفضل ولقيه، وتجرع من هم زوال ملكه ما سقيه، فلما ملك العزيز دمشق أقام أياماً بالميدان الأخضر الكبير إلى أن انتقل الأفضل من القلعة بأهله وأصحابه، وأخرج وزيره الجزري مخفياً في صناديقه، إشفاقاً عليه من قتله وتحريقه، وتحوّل الأفضل تلك الأيام إلى مسجد خاتون وما يجاوره ومعه وزيره فهرب ليلا إلى بلاده وقد ادّخر فيها أموال دمشق وأعمالها ثلاث سنين.

قال وكان العزيز قرّر مع العادل أن يقيم العزيز بدمشق ويستنيب العادل بمصر، فلما ملك دمشق ندم على ماقرّره، ورجع عما دبره، ونفذ إلى أخيه الأفضل في السر يعتذر إليه، ويشير بما كان اشترط عليه، فأظهر الأفضل هذا السر لصحبه، والمخصوصين بقربه، فقالوا لا تنخدع بهذا القول فربما كانت خديعة، وأطلع عمك العادل على هذا السر فإنه يرى ذلك عين البر، فأرسل إلى العادل من أعلمه بذلك فعزت عليه مراسلة العزيز الأفضل واجتمع بالعزيز وعتبه ، وقرعه بماأنبىء به وأنبه، وقال

له: أبنـي وتهدم، وأوجد مصالحك وتعـدم، فأنكر الحال وأحـالها وانتقض الأمر قبـل إبرامـه، ووجه إلى الأفضـل من أزعجـه، وإلى صرخد أخـرجه، وسد طـريق الاستنصـار على أخيه الظـافر حتـى أسلم في تسليـم بصرى للظفـر بسـلامته، وبـذلها ولم يتبعهـا بنـدامتـه، ورحل إلى حلـب وأظهـر الظاهـر الاحتفال به، وأمـا الأفضل فإنـه سار إلى قلعة صرخـد وسكنها، وحوّل أهلـه وأخاه قطب الـدين إليها وتوطنهـا،وعند خروج الأفضـل من قلعة دمشـق دخل العـزيز إليهـا يوم الأربعـاء رابع شعبـان، وجلس يـوم الجمعـة في دار العدل، واعتقـد النـاس أنه يطـول مقامـه عنـدهم، فلـم يشعروا به إلا وقـد برّز للرحيل، وتقـدم إلى العادل بأن يتولى البـلاد وفارق دمشق عشية الإثنين تـاسع الشهر، ونزل بـالمخيم فوق مسجد القـدم، ثم تحوّل إلى الكسـوة وودّعـه بها يـوم السبـت رابـع عشر الشهـر، فلما عـاد العادل من وداع العزيـز قرىء بالجامع منشوره العزيـزي بالبلاد والأعمال والنظر في جميـع الأحوال، وَشـاع أنه نـائب العزيـز، وهو سلطـانه،وأبقـى الخطبة بـاسم العـزيز خاليـة من اسمـه ، حالية بـرسمه، وضرب الـدينار والدرهم على سكته وأظهر أنه قوي بشـوكته وشكته، وجلس يومي الإثنين والخميس للعدل، وبسط يده لجمع الأمـوال وخزنها، لوقت عموم الحاجة إلى صرفها.

فصل

هذا آخر ما انطوت عليه «رسالة العتبى من أخبار ما جرى بعد موت السلطان رحمه الله»، وللعماد أيضاً كتاب آخر سماه« بنحلة الرحلة » ذكر فيه أيضاً نحواً من ذلك وهو أن الأحوال اختلت وتغيرت بعد موت السلطان، وأراد العماد الرحلة إلى مصر، فأصحبه الأفضل رسالة إلى أخيه العزيز فمضى إليه وعنده عمه العادل، فلم يتمكن من الرجوع إلا معهما لما خرجا بالعساكر فذكر الحديث في أخذ البلد، قال: وخرج الملك الأفضل واجتمع بالعزيز في الميدان، ودخلا من باب الفرج متصاحبين إلى الضريح الناصري، وصعد العزيز القلعة يوم الأربعاء وصلى هذه الجمعة عند ضريح والده في هيئة المودع، وأظهر بالبكاء والنحيب عنده سر القلب الموجع، ودخل دار الأمير سامة في جوار تلك القبة، وأمر القاضي محيي الدين بن الزكي بأن يبنيها مدرسة للتربة، قلت هي المدرسة المعروفة بالعزيزية، ووقفها قرية عظيمة تعرف بمحجه، فهذا قدر ما في كتاب النحلة مما يتعلق بما نحن فيه، ولم يكن ذكر مثل هذا من شرط كتابنا هذا، لأنه موضوع للدولتين النيرتين إلا أنه لا بدّ من ذكر ما يتعلق بهما مما وقع فيهما وعقبيهما، وتبعنا العماد فيما ذكر في العتبى لكونه أشار إليها في كتاب البرق، واستوفينا ما في كتاب البرق، والفتح القدسي، والتاريخ الأتابكي، وكتاب القاضي أبي المحاسن وأتينا على ما فيها من المحاسن، وانضاف إلى ذلك قطعة كبيرة من مواضع متفرقة كثيرة من عدة مصنفات، ودواوين ومراسلات، والله تعالى يوفق ملوكنا للاقتداء بسيرة سلفنا، في إقامة فرض الجهاد، وتخليص البلاد من أيدي الكفرة، والنظر في مصالح العباد، ومن كتاب فاضلي:« أما هذا البيت فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا، وإن الأبناء منهم اختلفوا فهلكوا، وإذا غرب نجم فما الحيلة في تشريقه وإذا بدا تخريق ثوب فما يليه إلا تمزيقه،وهيهات أن يسدّ على قدر طريقه، وإذا كان الله مع خصم على خصم فمن كان الله معه فمن يطيقه».

فصل

بعد انتهاء هذا الكتاب واسماعه مرة، وقفت على ماحسن لي الحاقه بهذا الكتاب، من ذلك أن القاضي الفاضل كتب في سنة ثلاث وتسعين إلى القاضي محيي الدين بن الزكي كتابا قال فيه: « ومما جرى في هذه المدود من المثلاث الجارية، والمعضلات العادية بأس من الله طرق بياتا، ونحن نيام وظن الناس أن اليوم الموعود قد طرق في الليل الممدود فإذا هم قيام إن الله تعالى أتى بساعة كالساعة، كادت تكون للدنيا كساعة،

في الثلث الأول من ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الآخرة، وذلك أنه أتى عارض فيه ظلمات متكاثفة، وبروق خاطفة، ورياح عاصفة، قوي لهوبها واشتدّ هبوبها، وارتفعت لها صعقات، وتدافعت لها أعنة مطلقات، فرجفت لها الجدران واصطفقت، وتلاقت على بعدها واعتنقت، وثار من السماء والأرض عجاج،فقيل لعل هذه على هذه قد انطبقت، وتوالت البروق من جهة المقطم على نظام، وتبع الواحدة الأخرى وتقفى الثانية على أثر الأولى، وترى البروق واقفة وهي تتعاقب، وقائمة وهي تتجاذب، ولاتحسب إلا أن جهنم قد سال منها واد، وعدا منها عاد، وزاد عصف الريح إلى أن انطفأت سرج النجوم ومزقت أدم السماء، ومحت ماكان فوقه من الرقوم، ولاتزال هذه الريح تسكن سكونا خفيفا ثم تعاود عودا عنيفا، فكنا كما قال الله تعالى(يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق)[١٤١] وكما قلنا: ويردون أيديهم على أعينهم من البوارق، لاعاصم من الخطف للأبصار، ولا ملجأ من الخطب إلاّ معاقل الاستغفار، وفرّ الناس رجالا ونساء وأطفالا، ونهضوا من دورهم خفافا وثقالا، لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، اذ يستغيثون ربهم ويذكرون ذنبهم، لايستغربون العذاب لأنهم على موجباته مصرون، وفي وقت وقوع واقعاته باستحقاقه مقرون، معتصمين بالمساجد الجامعة، ومتلقين الآية النازلة من السماء بالاعناق الخاضعة، بوجوه عانية، ونفوس عن الأموال

والأهل سالية، ينظرون من طرف خفي، ويتوقعون أي خطب جلي، قد انقطعت من الحياة علقهم، وعميت عن النجاة طرقهم، ووقعت الفكرة فيما عليه قادمون وندموا ونحمد الله أن نفعهم بأنهم نادمون، وقاموا إلى صلواتهم وودوا أن لو كانوا من الذين عليها دائمون، ولم يزل ذلك دأبهم كلما سكنت الرياح تحركت، وكلما قيل استقلت بركت، وكلما أخذت قيل ما تركت، حتى الثلث الأخير من الليلة المذكورة، والقلوب إلى الحناجر بالغة، والأبصار عن سننها زائغة، إلى أن أذن الله في الركود، وأسعف الهاجدين بالأمر لها بالهجود، وأصبح كل يسلم على رفيقه ويهنيه بسلامة طريقه، ويرى أنه قد بعث بعد النفخة، وأفاق بعد الصيحة والصرخة، وأن الله قدرد له الكرّة، وأدبه بعد أن كاد يأخذ على الغرة، وورد من الخبر أن المراكب كسرها ماكان معترضا في التحرز للعارض، والأصول العادية من الشجر عدت عليها الريح بحماها النافض، وأن في الطرق من المسافرين من كان نائما فدفنته الرياح حيا، وركب عما أغنى الفرار مما هو أمامه شيئاً، ولايحسب المجلس أني أرسلت القلم محرفا، والقول مجزفا، فالأمر أعظم ولكن اللهسلم، والخطب أشق، ومابلغت ولا قضيت بهذا التكثير بعض الحق، ونرجو أن الله سبحانه قد أيقظنا، بماوعظنا، ونبهنا بما ولهنا، فما من عباده من رأى القيامة عيانا، ولم يلتمس عليها من بعده برهانا إلا أهل بلادنا فما اقتص الأوّلون مثلها في المثلات، ولا سبقت لها سابقة في المعضلات، والحمدلله الذي من فضله أن جعلنا نخبر عنها ولانخبر عنها ولا تخبر عنا، ونسأل الله أن يصرف عنا عارض الحرص والغرور إذا عنّا، وشغلت خدمته بهذا المهم، وجعلته على علم من هذا العلم، فالسعيد من وعظ بغيره، وقدكانت لنا وفينا الموعظة، وللذكرى حدود ونعوذ بالله من اقامة حدوده المغلظة».

ومن كتاب له آخر الى العادل في سنة ثلاث وتسعين أيضا:« وقد تجدد من وصول العدو اللعين وحركته إلى جانب بيروت، وخطر البلاد ماأذهل كل مرضعة، وأوقع في ضائقة تنفق الأفكار فيها من سعه،

ولـلاسلام اليـوم قـدم إن زلت زل، وهمة إن ملـت فـإن النصر منه مـل، وتلك القدم العـادلية، وتلك الهمة الهمـة المسايفة السيفية، فـالله الله ثبتوا ذلـك الفـؤاد، ودمثوا ذلـك المهـاد، واسهـروا في الله فليست بليلـة رقـاد، ولاتنظروا في حديث زيد ولا عمـرو، ولا أن فلانا نفع ولا ضر، ولا أن من الجماعة من جاء ولا ان فيهم من مر، انظـروا إلى انكم الاسلام كله قد برز إلى الشرك كلـه، وأنكـم ظـل الله فـان صححتـم تلـك النسبـة فـإن الله لاناسخ لظله واصبروا إن الله مع الصابـرين، ولا تهنوا وإن ذهب الناصر فإن الله خير النـاصرين، فما هي إلا غمرة وتنجلي، وهيعـة وتنقضي، وليلة وتصبح، وتجارة وتربح» .

ومن كتـاب له آخـر إلى الملك العـادل :« أدام الله ذلك الاسـم تاجـا على مفـارق المنـابـر والطـروس ، وحيـاة للـدنيـا ومـافيهـا مـن الاجسـاد والنفـوس، وعرف المملـوك ماعـرفه مـن الأمـر الذي اقتضتـه المشاهـدة، وحرست به العاقبة في بيروت، ولامزيد على تشبيه الحال بقوله:

ألم تـــــر ان المرء تــــــذوي يمينـــــه
فيقطعهــــا عمــــد اليسلــــم ســــائره

ولوكـان فيها تدبير لكان مـولانا قد سبـق إليه، ومن قلم مـن الاصبع ظفرا، فقد جلب إلى الجسد بفعله نفعا، ودفع عنه ضرا:

وتجســـم المكــــروه ليـــس بضـــائر
مــــا خلتـــه سببــــا إلى المحمــــود

وآخر كـل شقوه أوّل كـل غزوه، فلا يسـأم مولانا نيـة الربـاط وفعلها، وتجشـم الكلف فهـوإذا صرف وجهه إلى واحـد، وهو وجـه الله صرف الله إليـه الوجـوه كلهـا(والذيـن جـاهدوا فينـا لنهـدينهم سبلنـا وإن الله لمع المحسنين)(١٤٢)

ومـن كتـاب آخـر لـه:« هـذه الأوقـات التـي أنتـم فيهـا عـرائس

الأعمار،وهذه النفقـات التي تجري على أيديكم مهـور الحور في دار القرار، ومأسعد من أودع يـد الله مافي يديه، فتلك نعم الله عليـه، وتوفيقه الذي مـاكل مـن طلبـه وصـل إليه، وسـواد العجـاج في هـذه المواقف بيـاض ماسـودّته الـذنوب مـن الصحائف، فما أسعـد تلك الـوقعات، ومـاأعود بالطمأنينة تلك الرجفات».

فصل

وللعماد الكاتب رحمه الله كتاب آخر سماه«خطفة البارق وعطفة الشارق» ذكر فيه أشياء من حوادث سنة ثلاث وتسعين إلى أن توفي هو رحمه الله في سنة سبع وتسعين وخمسمائة، واشتمل ذلك على فوائد تتعلق بما تقدّم، فأحببت إلحاقها به، من ذلك وفاة سيف الاسلام طغتكين بن أيوب باليمن في شوال سنة ثلاث وتسعين، وتولي ابنه شمس الملوك اسماعيل، هذا والملك العادل بدمشق وقد انتقل الملك الظافر إلى حلب بعد أن أخذ عمه منه بصرى، وعزم على قصد بغداد فصرفه أخوه الظاهر عن ذلك، وذهب الأمير أبوالهيجاء السمين إلى بغداد بأصحابه فأكرم، ثم سير في جيش الى همذان، ثم بعد رجوعه مات بدقوقا.

وانقضت مدّة هدنة الفرنج التي عقدوها مع ا لملك الناصر رحمه الله، فخرجوا والتقوا مع الملك العادل برأس الماء بمرج عكا، فكسرهم وفتح يافا عنوة، وكانوا كاتبوا ملك الألمان، وكان قد ملك صقلية، فأنهوا إليه تلك البلية،وقالوا إن عظام أبيه إلى الآن في صور في تابوت مكلل بالديباج، وكأنه في الأسر، منتظر الافراج، فإنه لايقبر إلا بالبيت المقدس اذا استخلص، والآن ماكان غلا منه استرخص، فان المسلمين قد اشتغل بعضهم ببعض، ولهوا عن كل سنةو فرض، فتدافعت إلى عكا سفنهم، وتدفقت مزنهم، وامتلأت بهم في الساحل مدنهم، وقصدوا بيروت وبها الامير عز الدين سامة، فلما سمع بوصولهم إلى صيدا خرج بجماعته منها وسار بأهله ومال عن وعر الأمر إلى سهله، ودخلها الفرنج بعد يوم من غير مطاولة سوم، ولا مماطلةروم، وكثر فيه الحديث، وذكر الطيب والخبيث، فمن قائل تجبن ومن قبل أن ينكب تنكب، ومن قائل رجاله هابوا فغابوا، ولو أنه دعاهم ماأجابوا، واتسع القول، ووقع الهول، حتى نظم بعضهم والفرنج على تبنين:

سلـــم الحصـــن مـــا عليـــك مـــلامـــه
مـــا يـــلام الـــذي يـــروم الســـلامـــه
فعطـــاء الحصـــون مـــن غير حـــرب
سنـــة سنهـــا ببيروت ســـامـــه

وتصرفت الفرنج في بيروت وأعمالها الساحلية، ويبقي لسامة الولاية الجبلية، ثم توجه إلى مصر.

ودخلت سنة أربع وتسعين

فنزل الفرنج سادس عشر المحرم على تبنين، وأرسل العادل القاضي محيي الدين محمد بن علي القرشي إلى الملك العزيز بمصر فخرج بجيوشه، ووصل في الثالث والعشرين من ربيع الأوّل، فجفلت الفرنج بعد ان كانوا ضايقوا الحصن، ورحلوا وجاءهم الخبر بهلاك ملك الألمان، ثم انتقل عسكر المسلمين إلى جانب الطور، ومع العزيز أخوته: الظافر والمعز، والمؤيد، وكان الافضل قد جاء إلى عمه قبلهم، وكان معهم على تبنين المجاهد صاحب حمص، والأمجد صاحب بعلبك، وعز الدين بن المقدم، وبدر الدين دلدرم وغيرهم من الأعيان،ثم رجعوا إلى بلادهم بعد عقد الهدنة، ورجع العزيز إلى مصر بعد أن خلع على ابن عمه الملك المعظم عيسى بن العادل، وخصه بالسنجق واللواء المنشور لطي اللأواء، وعاد المعظم إلى دمشق وقد قرت به العيون، وحسنت فيه الظنون، فكان أعز أولاد العادل عنده، وأعلقهم بقلبه، وأخصهم بحبه، قد ولاه سلطنة دمشق، وأطاب فيها بنشر كرمه النشق، وأقام العادل حتى استقرت الهدنة، وظهرت في عمارة تبنين المكنه، ثم عاد إلى دمشق وأقام قليلا ثم شرق، ورقع بها من الأمر ماتخرق، ورتق ماتفتق، ورد بلاد أولاد عماد الدين زنكي إليهم لأنه توفي في هذه السنة، واستولى عليها ابن عمّهم صاحب الموصل، فأنجدهم عليه السلطان الملك العادل.

وتوفي جماعة من أمراء الموصل منهم الأمير عز الدين جرديك، وكان فارس الاسلام ومقدامه، وشجاعه وهمامه، ومابرح من أيام نور الدين إلى أيام صلاح الدين رحمهم الله ليث العرين، أشم العرنين، وهو الذي أعان صلاح الدين على القبض على شاور، وولاه صلاح الدين القدس في آخر عهده، فقام بمصالحه من بعده، ثم تسلم منه الملك الأفضل، وسلمه إلى أبي الهيجاء السمين، فلما خرج الأفضل من دمشق وصل إلى الموصل، وانتقل من حوض الكوثر إلى أعذب منهل.

قال: ونزل السلطان العادل على قلعة ماردين في شهر رمضان، وملك ربضها ومدنها وولاياتها وصاف عليها وشتا، وصبر وصابر ولم يقل كيف ومتى، وماشك أحد أن ماردين في ملكه مضافة إلى ملكه، وقد هنأه بها الشعراء منهم ابراهيم بن مروان من أهل رأس عين له من قصيدة:

فإن تك مصر أم ملك فمارد
إذا نسب البلدان فحل الممالك
تقاعس عنها سنجر وابن عمه
وقصر عنها عزم زنكي الاتابكي
فان تك قد شوركت في فتح غيرها
فمالك في أمثالها من مشارك

ودخلت سنة خمس وتسعين

والملك العادل نازل على ماردين، وقد وصل إليه أصحاب الأطراف مساعدين، وقد أصلح بين صاحب الموصل وبني عمه عماد الدين،وردهم إلى سنجار، والخابور ونصيبين، وقد أذعن له الجماعه بالطاعة، ونائبه في تلك البلاد وديار بكر ولده الملك الكامل محمد.

قال: وفيها ليلة الأحد العشرين من المحرم توفي الملك العزيز بداره بالقاهرة، وكان عزم على الصيد في أعمال الفيوم فخيم تلك الليلة عند الاهرام،فقيل انه أصبح وركض خلف صيد فكبا به الفرس مرة بعد أخرى فتمت له سقطه، عمت بها على الزمان سخطه، فتفاقم ألمه وأقام يومين أوثلاثة لايستطيع له مخلوق إعانة ولا إغاثة، ثم حم حمامه ، وأظلمت بفجيعته أيامه، وقبر في داره، لينقل منها إلى دار قراره،ثم حوّل منها في الأيام الأفضلية إلى التربة المقدسة الشافعية، وورد كتاب القاضي الفاضل تعزية به للملك العادل:« أدام الله سلطان مولانا الملك العادل، وبارك في عمره، وأعلى أمره بأمره، وأعز نصر الاسلام بنصره، وفدته الأنفس الكريمة، وأصغر الله العظائم بنعمته فيه العظيمة، وأحياه الله حياة طيبة يقف هو فيها والاسلام في مواقف الفتوح الجسيمة، وينقلب عنها بالأمور المسلمة والعواقب السليمه، ولا نقص له رجالا ولا عددا، ولا أعدمه الله ماقدر في الملك العزيز رحمه الله له ذيلا ولا يدا، ولا أسخن له قلبا ولا كبدا، ولا كدر له خاطرا ولا موردا، ولما قدّر الله في الملك العزيز رحمة الله عليه، وتحياته مكررة إليه من انقضاء مهله، وحضور أجله، كانت بديهة المصاب عظيمة، وطالعة المكروه أليمة، فرحم الله ذلك الوجه ونضره، ثم السبيل إلى الجنة يسره

واذا محاسن أوجه بليت
فعفا الثرى عن وجهه الحسن

فاعزز على المملوك وعلى الأولياء، بل على قلب مولانا، لاسلبه الله ثوب العز بسرعة مصرعه، وانقلابه إلى مضجعه، ولباسه ثوب البلا قبل أن يبلى ثوب الشباب، وزفه إلى التراب وسريره محفوف باللذات والأتراب، وكانت مدّة المرض بعد العود من الفيوم أسبوعين، وكانت في الساعة السابعة من ليلة الأحد العشرين من المحرم، والمملوك في حال تسطيرها مجموع له بين مرض القلب وجسد، ووجع أطراف وغليل كبد، وقد فجع بهذا المولى والعهد بوالده رحمه الله غير بعيد، والأسى في كل يوم عليه جديد».

ووصل قبل هذا إلى العماد كتاب من الفاضل فيه:« وأنا على مايعلمه المولى من العزلة إلا أنها بلا سكون، ونحن على انتظار البرق الشامي أن يمطر، وحاشى ذمة الوعد به أن تخفر، واشتغال سيدنا في هذا الوقت بالدرس والتدريس، والتصوير والتكييف، والتصانيف التي تصرف فيها بالبلاغة أحسن التصاريف، نعمة يتعين شكرها على العلماء، ويختص باللذة بها سادتهم من الفقهاء».

قال العماد: ولما توفي الملك العزيز خلف بنين صغار يزيدون على العشرة، وولده الأكبر ناصر الدين محمد قد أنافت سنوه على عشر، وكان إلى أبيه أحب أولاده، يشيم من شيمه مخيلة سداده، وقد اختص لديه، ونص عليه، فاجتمع الامراء الصلاحية وكبيرهم ومقدمهم فخر الدين إياز سركس ومنهم أسد الدين سراسنقر وزين الدين قراجه، وعقدوا الأمر لولده ناصر الدين، ونعتوه بالملك المنصور، وأخذوا له أيمان الجمهور، قال: وكانت الأسدية في الايام العزيزية الناصرية مغمورين، وبالاستيلاء عليهم مقهورين، وكبيرهم سيف الدين يازكوج، وكان عند وفاة العزيز غائبا بأسوان، فلما بلغه ذلك حضر وجمع الأسدية، واجتمعوا هم والصلاحية ظاهر القاهرة، فقال لهم: نعم مارأيتموه من حفظ العزيز في ولده، لكنه صغير السن لايحتمل ثقل هذا الفن، ولا بدّ من

كبير من أهل البيت يربيه ويدبر الدواوين، ويرتب القوانين، وماهاهنا إلا الملك العادل، وهو الآن ببلاد الشرق مشغول، وهاهنا من هو أقرب منه، وهو الملك الأفضل، فقال الأسدية: هذا هو الرأي الراجح، ولم يسع الصلاحية مخالفته، فاتفقوا على استدعاء الأفضل من صرخد، فخرج منها ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من صفر، وسلك البرية، فوصل إلى القدس يوم الخميس، وخرج إليه عسكره، وساروا معه إلى بيت جبريل، ثم أغذ السير فلما قرب منهم في تاسع ربيع الاوّل تلقوه، وإلى أعلى مراقي العلا رقوه، وسروا بقدومه، وجروا لمرسومه.

قال: وكان الناصرية كتبواإلى رفقائهم بالشام إنا أحوجنا إلى الوفاق، وتأكيد الميثاق، وقد كتب إلى نور الدين بالحضور، وضبط الأمور، وهو عندكم في صرخد، وإن توصل الينا انتظم أمره، وتمهد، فاجتهدوا في حصره وهو في حصنه، ولاتسمحوا بفك رهنه، ووصل إلى دمشق بعض الكتب يوم الاثنين السابع والعشرين من صفر فخرج عسكرها إلى صرخد فوصلوا إلى بصرى يوم الأربعاء، فقيل لهم: إن الأفضل أدلج ليلا، واستصحب نجبا وخيلا فرجعوا إلى دمشق، وقيل لما عبر الأفضل بالبيت المقدّس وجد في طريقه نجابا مسرعا فأستحضره، واستكشف ورده وصدره، فقال أنا نجاب فخرالدين اياز سركس، ومعي كتبه إلى من يأنس به ويحبه، فتسلم منه الكتب،وعاد النجاب في خدمته، فلما وصل إلى القاهرة احتفل سركس له وأضاف وقدّم وغرم أموالا ثم أبصر نجابه، واقفاً ببابه، فأخبره الخبر فاستشعر من ذلك وتضور، فمضى وتبعه عسكره وزين الدين قراجه فوصلا إلى القدس وسكنا به وعرف الناصرية جلية الحال، فأخذوا في الانتقال، وتوهم الأفضل من الباقين فقبضهم وحوى جوهرهم وعرضهم، فتفرقت الكلمة المجتمعة، وتوقفت الهمم المسرعه، وأمر الأفضل بالخطبة لابن العزيز على جميع المنابر،ثم الدعاء له في الآخر، ونقشت السكة أيضاباسم الولد في البلد وغير البلد.

قال: ولما استقر الأفضل بمصر حملوه على قصد دمشق، وحصرها، وقالوا له: اطلب بلدك الذي منه أخرجت، وعن المقام فيه أزعجت، ومالك في مصر مايكفيك، ودمشق لك بوصية أبيك، وجاءته رسل أخيه الظاهر من حلب وهداياه، وقال له: انتهز الفرصة فعمنا عنا مشغول وإلى إن يتم من ماردين مراده، وينضم إلى بياضه سواده نخرج دمشق عن يده، ونعجله اليوم فيها عن غده، وأنا أصل إليك وأقدم عليك بالبنود والجنود والأساور والأسود، فما زالوا به حتى خرج بالعسكر واستناب سيف الدين يازكوج مكانه .

قال : ووصل إلى الملك العادل الأمير سراسنقر أحد الأمراء الناصرية المفارقين، فاستحثه على مفارقة ماردين، وتواصل من الناصرية جماعة بعده، وعندهم من الإستحثاث ما عنده، فحركه القول وتجرد عن العسكر واستصحب معه الأميرين: عز الدين بن المقدّم وبدر الدين دلدرم، وسرى ليلا لخمس بقين من رجب، وأوصى ولده الكامل أن يسير في مضايقة حصن ماردين بسيرته، ويقتدي بعزمته، ووصل إلى دمشق يوم الإثنين حادي عشر شعبان، وأخذ في تحصين البلد.

ووصلت العساكر المصرية يوم الخميس وأحاطت بدمشق،ودخلها جماعة منهم من باب السلامة بلغوا إلى السوق الكبير، وأعلنوا الفتح بالتكبير، ولم يتبعهم أحد على هذا التدبير، فخرجوا من باب الفراديس وكرّوا على أعقابهم لمن وقف لهم من الكراديس، وأما الأفضل فإنه وصل إلى الميدان الأخضر، وضرب فيه دهليز سرادقه، وأقدم برواعده وبوارقه، فأشار عليه أمراؤه بالتأخر عن تلك المنزلة، وكانت منهم زله،فنزلوا عند ميدان الحصا ثم تأخروا إلى مسجد القدم، وامتلأ ذلك الفضا بمضارب الخيم، ففترّت الصدمة الأولى، وقصرت الصدعة الطولى،وخمد الجمر فصار رمادا، واستحالت تلك الأمواج المتلاطمة ثمادا، ولزموا منازلهم أكثر من ستة أشهر هناك، وتمت فوارط عدمت الاستدراك، وامتدت

خيامهم من أقصى داريا إلى الغوطة، وظنوا أنهم آخذون بمخنق دمشق المضغوطة، وكاتب الملك العادل جماعة من أمراء العسكر المصري ففارقوه ودخلوا دمشق، فأكرمهم واحترمهم منهم طغرل المهراني، وإياز البانياسي، وابن كهدان، ومثقال الخادم، وابن أخت السلطان ابن سعد الدين كمشبه، وكثر الواصلون القاطعون لمن وراءهم، وأحسن العادل جزاءهم، فتكاثرت الأطماع وتتابعت الرؤوس والاتباع، ووصل الملك الظاهر،ومعه أخواه الظافر، والمعز، وجاءهم الملك المجاهد صاحب حمص، وعسكر حماه دون سلطانها، وحسام الدين بشارة صاحب بانياس، وهو شيخ الدولة وكبيرها، وأمينها وأميرها، وفي حمايته حصنا تبنين وهونين ومايزال أسرى من كفراء الفرنج بدين الله عنده مرهونين، فرغبهم في السلامة والسلم، والاحتمال والحلم، وأشار على كل من الجانبين بتجنب المجانبة، والتقرب بالمقاربة والمراقبة، وجاءهم أيضا سعد الدين مسعود صاحب صفد، وأخوه نور الدين مودود.

قال: ولما جبنوا عن مضايقة الحصار واصلوا قطع الاشجار، وكسر الأنهار، ومنع كل مايدخل البلد من نعمة ونعم، وغنيمة وغنم، حتى ردوا القوافل، وصدوا الفروض والنوافل.

قال: وكان الناصرية المقيمون بالقدس قد استولوا عليه، ونظفوا ممن ارتابوا به حواليه، وأخرجوا منه المغاربة، ورجاله وأجناده الراتبه، ومعهم الأمير فارس الدين ميمون صاحب نابلس، وعز الدين سامة صاحب كوكب وبيسان، ثم وصل الخبر أن سركس ومن معه واصلون إلى دمشق،فتجرد من المحاصرين عسكر إلى طريقهم، وكانوا قد وصلوا إلى طبرية، وعبروا منها الى البقاع وتمكنوا خلال تلك الضياع، وسيروا إلى بعلبك ماصحبهم من الأثقال والأحمال، وكان صاحبها الامجد في جانب الملك العادل، وتجردوا خيلا، وقطعوها ليلا، وتوقلوا الجبال حتى أشرفوا على دمشق من عقبة دمر، وقد فاتوا العسكر، فتقوى عسكر البلد فصاروا

يبكرون ويركبون، ويقربون من العسكر المصري ولايرقبون، وحفر المحاصرون حولهم خندقا عميقا فصار لهم به عن الحصار شغل شاغل.

قال: وعلى الجملة فما ظهر منهم صنع إلا في قطع الماء ومنع الميره، والمضايقة الكثيرة، واحراق البساتين، وتخريب الطواحين، حتى إذا انحسمت المواد، وفنيت في البلد الأزواد واضطروا إلى التسليم، واضطربوا على التأخير والتقديم، فتسلط الرعية على الملك العادل وحملوه على التسليم والاستسلام، فتباينت أراء الملوك المحاصرين، بما دبره العادل سيف الدين، ولابد للكبار من الاحتيال، إذا صمم الصغار على الاغتيال، وليس في ذلك بدعة، فإن الحرب خدعة، فنفذ الى الظاهر في الباطن، وقال له: أنت السلطان وحكمك على جميع الأماكن والمواطن، وأنا أسلم إليك دمشق على أنها تكون لك لا لغيرك، فقال الظاهر لأخيه الافضل: قلدني في الانعام بدمشق منة المتفضل، فقال له هذه لاتخلو من أقسام جالبات لأسقام، أجلك أن تتولاها تولية النائب، وإن أخذتها دوني فمن النوائب، وإن أعطيتني عنها عوضاً مما أعرف لك فيه غرضا، فما لك مايصلح أن تقايض به دمشق، وأنت لاتدعي لها العشق، فتغير بهذا رأي الظاهر، والله المطلع على الضمائر، وقيل أرسل العادل وقال: أسلم اليكم دمشق بعد سبعة أشهر، وتربص وتصبر، فخذوا يميني، وكلوني إلى ديني، وظن أنهم لايوافقون وفي الحصر يضايقون، فلما أجابوه إلى هذا الملتمس، وقعقعوا في الاستضاءة بهذاالقبس، عرف انهم نادمون فيما عليه من الحصر قادمون، فعاد عن هذا البذل، وردّهم إلى سنن العدل، وقيل: كان يكتب إلى الأفضل إن الأمر انفصل مع الظاهر، وإنه يعاملك معاملة المسر لا المجاهر، فخذ لنفسك وأبدل معى وحشتك بأنسك، ويكتب أيضا إلى الظاهر إن الأفضل قد صالحني، وعلى الرضى صافحني، وإنك تحصل على المضاغنة، وستفضي بك المباينة إلى المغابنه،وقيل إنه كان يكتب في كل يوم أجوبة كتب قوم لم يكاتبوه، ويجيبهم عما فيه لم يخاطبوه، وخبزت تلك الملطفات في عجين، لتفرّق

على من يقصد العسكر من المساكين، فإذا فتشوا عثر على تلك الملطفات، فنعت من كتب إليه ، ولاعلم له، بالآفات، وعدّوا من المخامرين، فصار أكثر العسكر من المتهمين.

ثم دخلت سنة ست وتسعين

وهم على ذلك والشتاء قدهجم، وكل بأمره مهتم، ودهمهم أيضا خبر وصول الملك الكامل من الشرق، وخرج من دمشق جماعة يظهرون أنهم من الناصحين، وتردّدوا إليهم ومنهم غادين ورائحين، وأبرقوا وأرعدوا وقالوا: غدا يكون قدوم الملك الكامل في الجحفل الحافل، ومعه من المال الصامت إلى أبيه العادل، فيستظهر بولده والمال والرجال، فلا يقعد عن النهوض إلى القتال، والصواب أن نتأخر قليلا، فرحلوا إلى سفح جبل العقبه، وبقيت أسواقهم مملوءة، وباتوا تلك الليلة وهم لكل مايحتاج إليه عادمون، وعلى مافرط منهم نادمون، وفقدوا حتى الماء للشرب، وكانت تلك الحالة كسرة قبل الحرب فاضطربوا المحل المحيل، واضطروا إلى راحة الرحيل.

ووصل الكامل تاسع عشر صفر، وقد جمع التركمان، واستصحب جند الرها وحران، ونزل في جوسق أبيه، فاستبشرالسلطان برحيلهم وقدوم ابنه، وقضت خشية الله بأمنه، وأقام الكامل حتى توجه أبوه إلى مصر، فخرج معه أياما ثم عاد ولم يؤثر مقاما، وانتقل إلى حران والرها واستقام به أمرها، وذلك حادي عشر ربيع الأوّل، وأما المحاصرون فإنهم انتقلوا من الكسوة إلى مرج الصفر، وسير الملكان الظاهر والمجاهد بعض الأثقال إلى بانياس، وأصحبا بقية الأحمال الملك الأفضل إلى مصر، وودّعاه وكلاهما سار جريدة إلى مقره، واستمر بعد ذلك على أمرار أمره، كلما رحل القوم عن منزل أحرقوا مالم يظفروا له بمحمل، وانتقلوا من مرج الصفر ولم يلووا على أحد، ولم يعرجوا إلى بلد، وأخذوا في السير والسرى، وذهبت آسادهم تروم معاودة الشرى، وتبعهم الصلاحية ينزلون بعدهم في منازلهم، ويخلفونهم في مناهلهم، وكان القوم ظنوا انهم يقدرون بمرج الصفر على الاقامة، فلقوا من البرد ماحضهم على النجاة والسلامة، وهذا المرج بقرب جبل الثلج في تموزلايقيم به إلا لابس فروة فكيف في كانون،

وقد عـرفوا أنهم الجانون حيـث لم يلزموا القـانون، وأرسلت الصـلاحية إلى الملك العادل يستعجلوبه، ويحثونه ولا يهملـونه، فخرج يوم الخميس تاسع ربيع الأوّل، وودّع أعيـان البلد وسـار وتلا مـن تقدّمـه إلى تل العجـول، وأقام حتى اجتمع اتباعه.

وأرسل إلى الافضل العدل النجيب أبا محمـد ،وكان صلاح الدين رحمه الله يعتقد في صلاح دينه، ويمكنه من خواص حـاجاته، ويرسله في مهام الـرسائل، وكـان مـدلول الـرسـالـة: أرفق في السير، ووافـق على الخير، فما عندك اليوم من يصدْقك، وأنا لك كـالوالد وأبلغك مقصودك، وأحالفك ولا أخالفـك، وأوافقك ولا أفارقك، فـأشار على الافضل جماعته بـأن يرد جواب الرسالة: إن مقـاربتي لك بمباعدتك للصلاحية منـوطة، وموافقتي بمخـالفتهـم مشروطه، فلما سمـع ذلـك الصـلاحيـة استشاطـوا ونفـروا، واستـدلوا بـه على أنهم ظفـروا، وجدّ جـدّهم، واحتـدّ حـدّهم، فطـووا المراحـل إلى السـائح، وكـان الأفضـل على بلبيـس، وقـد تفـرّق معظـم أصحابه إلى أخبازهـم، وجماعة منهم مع العادل في الباطـن كاتبوه، وعلى الابطـاء عـاتبوه، فسـار الجمعـان بعضهـم إلى بعض، والتقـوا فـانكسر أصحاب الأفضل وانهزمـوا، فدخلوا القاهرة، وأغلقـوا الأبواب للمحاصرة وانتهـى إلى الأفضـل أن جماعـة منهـم أرسلـوا إلى العـادل في إصـلاح أحوالهم،وانجاح آمالهم ،فقـال سيف الدين يازكوج لـلأفضل: لكل زمان عمل،ولكـل أوان أمل، فاصلـح الأمر كيـف تهيأ، فلا مـلام على اللبيب بأي زي تـزيا، فشرع الافضل في اصـلاح الامر مع عمـه، وراسله على أن يكون بحكمه، ثـم سلم الأمر ومر سالما، وحصـل له من التجربـة ماعاد به بالعواقب عالماً.

قال: وخيم العادل بالبركه، واستبـدّ بملك مصر آمنا من الشركة، ونفذ المقطعين إلى اقطاعهم، ونظـر للصلاحية في صلاح ضيـاعهم، وأرسل إلى الأفضل إن وافقتني على مـاأعطيك وقبلت سعدت، فهؤلاء الـذين عندك

مامنهم إلا من كتب إليّ وتقرّب، وانتظر يومي هذا وترقب وهذه إضبارة كتبهم فتأملها، وإن لم تصدقني فتسلمها واعلم أنهم غرّوك وضرّوك، وساؤوك بما سرّوك ، وقيل: لم يبق من الأمراء من لم يكتب إليه، ولم يخامر إلا أربعة أخلصهم سيف الدين يازكوج، فلما عرف الأفضل صدق عمه سلم المسألة،وسأل المعدله، فقرر للأفضل في ديار بكر:ميافارقين وأعمالها، وجبل جور وحاني وجملين، والمعاقل والحصون المحسوبة من ميافارقين، فرضي بها مكرها، وخرج إلى الشام متوجها ليلة السبت سابع عشر ربيع الآخر في الليلة التي دخل العادل في بكرتها القاهرة فاستقر بدار السلطنة، وقدم سيف الدين يازكوج وحكمه، واستبقى رضى الناصرية بابقاء الخطبة لابن العزيز، ولم ينافسهم مع حصول المعنى له في التفضيل والتمييز، وأقام وهو كل يوم في ارتفاع وسياده، وقوته في نموّ وزيادة.

قال: ورد القضاء الى القاضي صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردي، ولم يزل قاضي القضاة بالديار المصرية، من الأيام الناصرية وكان نائبة القاضي زين الدين على بن يوسف الدمشقي، وتعصب الامراء المتغلبون على الملك العزيز في مراتبه بصرف صدر الدين وتولية نائبه، ولم يزل صدر الدين مصروفا تارة بمحيي الدين بن أبي عصرون، وتارة بزين الدين حتى تعصب العادل له وبعث العزيز على ردّه، فلما انقضت أيام العزيز وجاء الأفضل كان أوّل ماحمل عليه أن صدر الدين يعزل، وتولى زين الدين القضاء، فلما جاءت نوبة العادل في هذه السنة ردّ صدر الدين إلى منصبه، وردّ التدريس بالمدرسة الشافعية في التربة المقدسة، وبالمشهد الشريف الحسيني الذي أجرى عليه حكم المدرسة إلى شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه، وكتب إليه وهو بدمشق فاستدعاه، وقد كان قبل ذلك ولاه في ممالكه الجزرية أمور المناصب الشرعية، والامور الدينية، ومدارس الشافعية، وربط الصوفية، وهو قاضي قضاتها، ووالي هداتها، وهادي ولاتها، وله في مناصبه نوّاب، وفي مراتبه أصحاب.

قال: ولما دخل العادل القاهرة، استشعر أصحاب الدواوين مهابةالوزير صفي الدين ابن شكرالظاهرة، ونزل في الدار السلطانيةفي الحجرة الفاضلية، وتصدّر في مكان مكانته وشهر من قلمه عضب شهامته، وسيف صرامته، وقمع المتجبرين، ووضع المتكبرين، وأخذ قوس الوزارة باريها، وأجرى الله الأمورأحسن مجاريها.

قال: وندب العادل من الأسدية والصلاحية أميرين كبيرين إلى الشام لإصلاح ذات البين بحمص، وحماه وحلب وغيرها، وهماسرا سنقر، وكرجي.

قال: ولما ودّع الافضل عمه بالبركة سار إلى صرخد، وأقام بها وندب إلى البلاد التي بديار بكر من يتسلمها،ولما انفصل عن مصر وجد المواصلين له لصحبته مفارقين، وكذا الدنيا ماتقبل على أحد ولاتمدّه بمدد، إلا تواردت على حياضه الجموع، وتزاحم في رياضه الرقوع، فاذا صرفت عنه وجوهها صرف أهلها عنه الوجوه، وأحلوا به مكروه المكروه.

قال:وأما الظافر فإن عمه أحسن إليه، ووعده بعطاء جزيل، وودّعه بثناءجميل، وأقطعه بأعمال دمشق حزرما وضياع السواد، وشق عليه انه لايجد مايجود به وهو من الاجواد، ووصل إلى دمشق رابع جمادى الآخرة وسكن في جوسق بستانه بالنيرب، وسلك طريقة الاحتراز والاحتراس، واختار البعد عن مقاربة الناس، ولزم السكينة، ولم يدخل المدينة، وطلب من القاضي بجامع النيرب خطيبا شافعياً ليكون بالصلاة فيه عن حضور الجامع بالبلد غنيا، واحتاط غاية الاحتياط، وطوى بساط النشاط.

فصل

قال العماد: واستدعى العادل ابنه الكامل إلى مصر ليستنيبه فيها وكان بحران، وهوفي تلك البلاد نائب السلطان، فسلم تلك الولاية إلى أخيه الفائز، ووصل إلى دمشق سادس عشر شعبان، ونزل بجوسق أبيه في بستانه، ومعه شمس الدين المعروف بقاضي دارا، وهو وزيره، ومستحثه على المكارم ومشيره.

قال: وخدمته بكلمة أوّلها:

أنتم تحبون بالاعراض تعذيبي
وتقصدون بخلق الصدّ تهذيبي
ساروافيا صحتي من مهجتي ارتحلي
غابوافيا سنتي عن مقلتي غيبي
قد كان يهضمني دهري فأدركني
محمد بن أبي بكر بن أيوب
الكامل المالك الأملاك حيث له
رق الأعاجم منهم والأعاريب
معطر عرفه عرفا ومكرمة
مخمر طينه بالطهر والطيب
لايدعي جوده البحر عرفا ومكرمة
يلفى تأبيه في الشم الشناخيب (١٤٣)
دعتك مصر إلى سلطانها فأجب
دعاءها فهو حق غير مكذوب

قال: وعزمت على صحبته في هذه السفرة إلى مصر، فخرج في الثالث والعشرين من شعبان إلى الكسوة، وخرج سلطان دمشق الملك المعظم ليودّع سلطان مصر أخاه الكامل، وصحبه إلى رأس الماء مع عدّة من الأمراء، ثم ودعه وانصرف وتشوّش مزاج الكامل بعده وانحرف، ووصل

إلى العباسة في الحادي والعشرين من رمضان، والتقاه والده العادل وأنزله بالقصر، ثم ركب إليه بعد يومين وأستصحبه إلى الدار ورتب أحواله على الإيثار، وكان قد عقد له على ابنة عمه الملك الناصر رحمه الله، فأدخله إليها ليبني عليها.

قال: وأصبح العادل يوم الإثنين سابع عشر شوّال، وركب بالسنجق السلطاني والمركب الخسرواني، والسيوف المسلولة، والعقود المحلولة، وأمر الخطيبين بجامعي مصر والقاهرة بالخطبة له ولولده الكامل من بعده ليس بعد دعاء الخليفة إلا الدعاء لهما، وانقطعت الخطبة لابن العزيز، وكان أحضر جماعة من الفقهاء والقضاة والكبراء والولاة، وقال لهم قول المستفتي المستشير: هل تصح ولاية الصغير؟ فقالوا: هذا مولى عليه فلا يلي، وغيابات الحوادث بنظره لاتنجاب ولا تنجلي، فقال: فهل يجوز للمولى الكبير أن ينوب عنه إلى أن يكبر، ويرتب الأمور بحكم النيابة ويدبر؟ فقالوا: إذا كانت الولاية غير صحيحة فلا تصح النيابة، ومن رآه صواباً أخطأ به الإصابة، لاسيما في السلطنة التي هي خلافة الخليفة، فلا حق فيه إلا للكبير الذي يعين على الحقيقة، وجرى منهم في هذا المعنى الإمعان، فلما عرف الشرع أحضر الأمراء والتمس منهم الطاعة والسمع، وخاطبهم في اليمين له والميثاق، وألزمهم بالوفاء، والوفاق، فأبوا وخاطبهم بمراعهم، وملأ بالتقريع اسماعهم، ثم قال: قد علمتم ما هو الواجب من التظافر على حفظ ثغور الإسلام، وتدبير الممالك بمصر والشام، وما هذا أمر يناط بالصبيان، أو يحاط بغير ذي القدرة والسلطان، فأذعنوا وأطاعوا وحصل الإئتلاف، ورفع الخلاف.

قال: ولما أصبحنا يوم السبت شاهدنا الملك الكامل قد ركب مثل والده، معقوداً سنجقه بمعاقده، والمناصل مجذوبة، والصواهل مجنوبة، والأعين ناظرة، والألسن ذاكرة، ومشى في ركابه من إليه تحجب، وإلى السلطان تقرب.

قال: وركب يوم الخميس السابع والعشرين من شوّال إلى برج المقسم، والمقسم موضع على شاطىء النيل يزار، وهناك مسجد يتبرك به الأبرار، وهو المكان الذي قسمت فيه الغنيمة عند استيلاء الصحابة رضي الله عنهم على مصر، ولما أمر صلاح الدين رحمه الله بإدارة السور على مصر والقاهرة، وتولاها الأمير قراقوش جعل نهايته التي تلي القاهرة عند المقسم، وبنى فيه برجاً هو مشرف على النيل ذو شرفات ومعقل ذو طبقات، وثيق البناء، رفيع الفناء، وبنى مسجداً جامعاً، واتصلت العمارة منه إلى البلد، متتابعة المدد، وهو متنزه عن الأكدار والأقذار منزه، وبالجنات مشبه، وإلى البحر والبر بمناظرة الشبابيك موجه، فاختار الكامل أن يجلس فيه يوماً للتفرج، فجلس في الطبقة العليا، واجتمع الأمراء والأعيان في الطبقة الدنيا، ثم مدّ السماط في الجامع، ثم ذكر العماد أنه مدحه ثم بكلمة أوّلها:

مغرم القلب مدنف
وجده ليس يوصف
وعدونا واخلفوا
ووفينا ولم يفوا

قال: وفي الحادي والعشرين من شوّال قدم فلك الدين أخو العادل من دمشق.

قلت: هو أخوه لأمه واسمه أبو منصور سليمان بن شروه بن جلدك، وإليه تنسب المدرسة الفلكية بنواحي باب الفراديس بدمشق وبها قبره.

قال العماد: وفي هذا اليوم خطب للعادل وابنه الكامل، والعادل في مهامه يستشيره ويستدعيه، والمرء كثير بأخيه، ثم عاد إلى دمشق بعد شهور.

قال: وفي العشرين من الشهر خرج حاج مصر إلى البركة، وأمر

عليهم نصير الدين الخضر بن بهرام، وكان والي المحلة، وهو مستمر الولاية من الأيام الصلاحية، وحج معه من معروفي الأجناد وأمرائها عدّة، وكذلك حج في هذه السنة حاج دمشق وصحبهم الأمير عز الدين سامة، وكانت السنة مباركة، والنعم متداركة، والخيرعام، والخصب تام.

قال: وانتظرنا زيادة بحر النيل في أوقاتها، فبلغ إلى احدى وعشرين أصبعا من ثلاث عشرة ذراعا، فعاد بذلك كل قلب مرتاعا، ثم أخذ في النقص وهو مرجو الزيادة مأمول الوفاء على العاده، فقنط الناس، ووقع اليأس، واشتدّ المحل، وغلا السعر، ويئس الفلاحون من الفلاح، وأجفلوا من البلاد للانتزاح، وطاروا بأجنحة النجاة في طلب النجاح، وقيل إن هذا النقص لم يعهد من عهد الصحابة، وشرعنا في الاستغفار والانابة، وصام الناس ثلاثة أيام قبل يوم التروية، وكأنما أصابهم مصيبة فهم في التعزية، ثم استسقوا ثلاثة أيام إلى العيد، وأفاض الخطيب في ذكر الوعيد، وغصت بالخلائق الأمكنة، وضجت بالأدعية والضراعات الألسنة.

قال: وفي السنة التي قبلها، وهي سنة خمس وتسعين، استدعي القاضي ضياء الدين أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله الشهرزوري إلى بغداد، وولي قضاء القضاة، وكان متولي القضاء بالموصل، فحرج في أواخر شعبان، فلما وصل بغداد بجل وعظم، وكان قد تردّد إلى بغداد دفعات في الأيام الصلاحية بسبب الرسالة، فهو كان المعين لها، كما تقدّم ذكره.